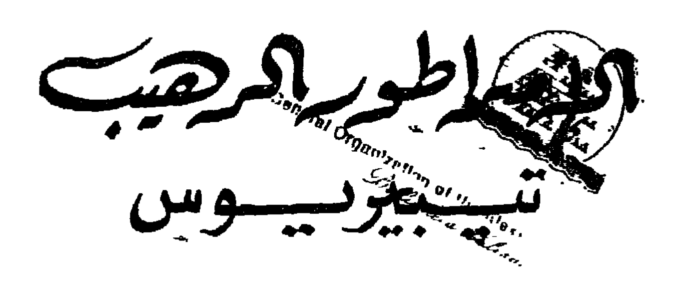
الامبراطور الرهيب

تيبيريوس

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تأليف: ارنست ماسون

تعريب: جمال السيد



تأليف : إرنست ماسون

تعريب : جمال السيّد



الحياة الخاصة لتيبريوس كلوديوس نيرو .. القاتل السفاك ..
الطاغية .. الحاكم المطلق على ١٠٠ مليون نسمة .

- كان بخيلا . ولكنه كان يعيش فى ترف ورفاهية .
- كان منحرفا . وكان القتل والجنس هما كل متعته .
- فى عهده صلب المسيح ، وباسمه دعيت بحيرة طبرية .
- كان يكره كل الناس ، وكانوا كلهم يكرهونه .

جمال السيد

الحياة الخاصة لامبراطور رومانى

منذ ألفى عام اعتلى عرش روما امبراطور جديد • وكان اسمه هو تيبيريوس كلوديوس نيرو • ولقد حيرت وأفزعت قصة حياته العالم من يومها حتى الآن •

فقد كان طاغية بخيلا منحرفا سفاكا للدماء • ولكن الامبراطورية الرومانية استقرت فى عهده وازدهرت اقتصادياتها •

وكان يعذب خصومه عذابا رهيبا • ولكنه كان هو الذى أعلن Pax Romana «السلام الرومانى» ومنع شن حروب جديدة •

وكان جشعا للمال ولكنه لم يفرض أى ضرائب جديدة • وكانت الضرائب فى عهده معتدلة — بمقياس العصر — •

وكان يرتاح الى الفلاسفة والشعراء والفنانين والمنجمين ويغمرهم بالهبات ولكن قصوره كانت تعج بالجوارى والسبايا والغلمان ، وكان شاذا فى علاقته بهم •

وقد قضى أعوامه الأربعة عشر الأخيرة فى جزيرة كابرى مستمتعا بالجنس وبالتعذيب وسفك الدماء • ولكنه ترك امبراطورية مستقرة وموطدة الأركان • حتى لقد قال عنه المؤرخ مومسن « انه كان أقدر حاكم للامبراطورية الرومانية على وجه الاطلاق» •

كلمة للمعرب

لو أن كاتبا مغرقا في الخيال ، كان هو مؤلف هذا الكتاب ، لما وجد من يصدقه . وحين أدهشني ذلك التتابع الدرامى لحياة تيبيريوس ، وتلك الأحداث الرهيبة التى عاشها ، أو ساهم فيها ، أو انفرد بارتكابها ، فانني رحت أقابلها بما ورد فى المراجع التاريخية ، فوجدتها مثبتة فيها بنفس الصور ونفس الألوان . وصدق من قال ان حقائق الحياة أغرب من كل خيال .

وبهذه المشاعر نقلت هذا الكتاب الى العربية وأضفت اليه التعريفات اللازمة .

جمال السيد

الرجل .. في سطور

كان اسـمه هو تيبيريوس كلوديوس نيرو وكان عـدد رعاياه هو مائة مليون نسمة .

وقد ولد فى وسط مأساة ضخمة وعاش حتى سن الكهولة فى ظل رجل عات من بناة الامبراطوريات . وقد أحب مرتين وفشل فى الحب مرتين . وفى نهاية عمره كان مكروها من كل انسان على قيد الحياة ، ولم يشذ هو عن تلك القاعدة . فقد كان يكره نفسه .

وقد قضى تيبيريوس طفولته فى وحدة مروعة ثم قضى معظم عمره فى الجرى من كل مكان . فقد كان يخشى الناس لأنه كان يحتقر كل الناس ، وكان يائسـا من اصـلاح روما ولذا فانه هجرها . وكان يمارس أفظع ضروب القسوة مع أعدائه ولم يكن له أصدقاء البتة .

وكان ــ كحاكم ــ يراعى شكليات القانون أما أخلاقياته فلم تكن تهمه فى شىء . وكان القانون الرومانى يحتوى على

بعض القواعد المطلقة التى لا سبيل الى نقضها · ولكن تيبريوس كان يبتكر من الوسائل مايتفق مع نص القانون ويتناقض تماما مع روحه · وكان طريقته فى احترام ظاهر النص القانونى ثم فى تنفيذه طبقا لرغباته وأهوائه أبشع بكثير من الظلم المطلق الصريح ·

وفى حياته الخاصة كان أكثر من وحش ، فقد كان يهوى هتك الأطفال ، وكان يطارد سيدات روما بعروض قذرة ، وكان يستمتع بايلام الآخرين · ومع ذلك فانه كان مثقفا وعالما ـ بمقياس العصر ـ وكان متضلعا فى الأدب اليونانى وعلم الطب وعلم قراءة الطوالع · وفى نفس الوقت الذى كان يعيش الناس فيه فى رعب منه فانه كان ـ بدوره ـ يعيش فى رعب من الناس ·

وقد حاول منافسوه فى العرش أن يتخلصوا منه ولكنه نجح فى أن يتخلص هو منهم · وكانت زوجته جوليا ـ ابنة الامبراطور اغسطس ـ من ألد أعدائه · وكانت تهب نفسها كل ليلة لأول عابر سبيل ، ثم تصرف نهارها فى التآمر على زوجها · وبينما قضت والدته السنين فى تدبير أمر توليه العرش فانها صارت فى النهاية مصدر تهديد لعرشه حتى أنه رفض أن يأذن بدفنها عندما ماتت وترك جثتها حتى تعفنت ، ولم يوافق على دفنها الا بعد أن زكمت رائحتها الأنوف · وبذلك انتقم منها على طريقته ·· فهو ـ من وجهة نظره ـ لم يرتكب فى حقها فعلا معينا ، وانما هو اكتفى بالصمت والسكون ، وهكذا يكون قد عاقبها بالمهانة والتحقير جزاء وفاقا لما ارتكبته فى حقه من آثام ·

ومع ذلك فانه كان اداريا ممتازا • وكان عهده أفضل بكثير من عهود سائر الأباطرة ، وكانت الامبراطورية في عهده تعيش في سلام ورفاهية • وكان الذى يميز تيبيريوس عن الأباطرة الطغاة مثل كاليجولا ونيرون هو أنه كان أرحم منهم ، ليس بمعنى الرحمة في حد ذاتها ، وانما بمعنى أن قسوته كانت ـ على بشاعاتها ـ أقل بكثير مما فعلوه من مذابح رهيبة •

وبقدر ماكان تيبيريوس منحرفا وطاغية وسفاكا للدماء فانه لم يكن غبيا ولا مجنونا وانما كان رجلا مستنيرا ومثقفا ـ بمقياس العصر ـ وكان أقدر من حكموا الامبراطورية من حيث الكفاءة الادارية •

على أنه بكل أسف كان يؤمن ببعض الحكم الخاطئة ومنها «من بعدى فلتأكل النيران الأرض» • وفعلا أشعل خلفاؤه «كاليجولا وكلوديوس ونيرون» هذه النيران •

البداية الدامية

لقد ولد تيبريوس منذ ألفى عام • وكانت روما وقتها قد أصبحت مدينة ضخمة وعاصمة للامبراطورية الرومانية• وقبل مولد تيبريوس بخمسمائة عام كان عدد سكان روما قد بلغ ٣/٤ مليون نسمة ، وكانت كتـائب الليجيون قـد بدأت سلسلة الغزوات التى احتلت بها كل أجزاء شـبه الجـزيرة الايطالية وكان حوض البحر الابيض المتوسط ومعظم العالم المعروف وقتها يتبعها • وكانت الدولة تحت الحكم الجمهورى• وراحت روما تزداد نمـوا وثراء • وكانت معظم طبقـات الشعب حرة • وكان ذلك أمرا جديدا على العالم• وصحيح أن الشعب الاغريقى قد عرف «حرية المواطن» ولكن ذلك كان على نطاق ضيق بحكم صغر حجم المدن الاغريقية • أما روما فقد أصبحت قوية وغنية وحرة فى آن واحد • وكان حكام المدن يختارون بطريق الانتخاب • وكان السناتو «مجلس الشيوخ» هو الذى يرسم السياسة الخارجية • وكان المواطن يعرف أين يقف ، بمعنى أن حقوقه كانت مستقرة ومضمونة بحكم الدستور

والقانون . ومع أن حقوق الطبقات العليا كانت تزيد على حقوق المواطن العادى ، الا أنه كان ـ اذا تعرض للظلم ـ يعرف أنه هو الذى انتخب هؤلاء الذين كانوا يحكمونه .

وقد غير يوليوس قيصر (١) كل معالم تلك الصورة .

وكان قيصر طموحا وقويا وخطرا فى آن واحد . وكان على استعداد لأن يفعل أى شىء فى سبيل الوصول الى السلطة . ولم يكن النظام الجمهورى ليروق له . وكان يؤمن بأن الحكومة يجب أن تخضع لشخص واحد قوى . وكان ذلك الشخص هو نفسه . ولذا فانه لم يتورع عن الرشوة والغش والقتل فى سبيل الاستيلاء على مقاليد الحكم . وكان يعرف بأن النظام الجمهورى من القوة بحيث لايمكن تغييره الا عن طريق خلخلته من الداخل . فبدأ باقناع السناتو بتعيينه قائدا لأحد الجيوش . ثم راح يعمل على كسب ولاء الجيش لنفسه هو وليس لروما . ثم قام بغزوات ناجحة باسم روما . ولكنه راح يستخدم الغنائم فى شراء أصوات الرومان ، حتى أعطوا أصواتهم لصالحه ومنحوه حق قيادة جيوش أخرى وحق القيام بغزوات أكثر .

وكان قيصر يريد أن يكون ملكا . ولكنه كان من الذكاء بحيث تبين أنه يجب أن يحصل على سلطات الملك قبل أن يحاول الحصول على لقبه .

وقط لم يصبح قيصر ملكا ، لأن خناجر بروتوس وصحبه قد تمكنت من حرمانه من ذلك ، ولكنه استطاع أن يكون

(١) جايوس يوليوس قيصر . ولد عام ١٠٢ ق.م ، وقتل فى ١٥ مارس عام ٤٤ ق.م وكان أول من لقب بلقب دكتاتور ولقب امبراطور .

إمبراطورا . وكان هو أول امبراطور على روما وأول صاحب لهذا اللقب . ومع أن أنصار الجمهورية قد تمكنوا من قتله بخناجرهم ، الا أن الجمهورية كانت قد ماتت فعلا .

ولقد أشعل مقتل قيصر أكبر حرب أهلية فى تاريخ روما . وقد استمرت هذه الحرب لمدة ثلاثة عشر عاما . وكان أحد طرفيها هو بروتس (الذى كان ربيبا لقيصر) وكاسيوس وباقى أنصار الجمهورية . أما الطرف الآخر فكان مكونا من أصدقاء وأقارب قيصر . وكان أحدهم هو مارك أنطونى وكان الثانى هو ليبيدوس وكان الثالث هو الوريث الشرعى لقيصر وكان اسمه هوأكتافيان (وقد استبدل هو ذلك الاسم فيما بعد باسم أغسطس ، وسوف نعرفه بذلك الاسم من الآن فصاعدا) . وكان هؤلاء الثلاثة يسمون أنفسهم «المنتصرون» وكان هدفهم المعلن هو الانتقام من قتلة قيصر ، أما هدفهم الحقيقى فكان هو السلطة والحكم .

وفى خضم تلك الأحداث ولد تيبيريوس .

وكانت والدته اسمها ليفيا . وقد ولدته وعمرها ثلاثة عشر عاما فقط وكان زوجها رجلا عظيما ، أما هى فكانت سليلة أسرة من أكبر أسر روما وكذلك كان زوجها ، الذى كان أيضا ابن عمها .

وكانت ليفيا جميلة وذات عينين حنونتين . وكانت تمتلك كل الفضائل المطلوبة فى المرأة الرومانية النموذجية . فقد كانت عفيفة وحازمة ومخلصة . وكان مطلوبا من ربة البيت الرومانية أن تدير بيتها بمهارة مدير المصنع . وفى

الواقع ان البيوت الرومانية الكبيرة كانت أشبه بالمصانع • فقد كان كل شيء يتم صنعه فيها •• الملابس (غزلا ونسجا وتفصيلا) والأثاث والأدوات المختلفة ، هذا بالاضافة الى تربية اللحوم والطيور وطحن وعجن وخبز الخبز ، الخ المطالب المنزلية •

وكانت ليفيا تستطيع أن تقوم بأداء ذلك كله • وحتى عندما كان لديها ستمائة من العبيد ، فانها كانت تصرف الساعات فى متابعة كل التفاصيل وكانت تستطيع أن تكشف أضأل خطأ فى نسج ثوب أو فى تنجيد مقعد • وكان من المفروض فى الأم الرومانية أن تكون متواضعة وبعيدة عن الفضائح ، وكذلك كانت ليفيا • ومع أن مجتمعها كان يعج بالفضائح فان أحدا لم يتناول اسمها فى أى وقت بما يشين • ولقد حدث أن أحاط بها فى الطريق ذات يوم ، عدد من الرومانيين العرايا ، لكى يستثيروها ، ولكنها رفضت مطلقا أن يعاقبوا ، وقالت ان الرجال فى نظرها لايزيدون عن كونهم تماثيل من الرخام •

وعندما كانت حاملا فى تيبيروس فانها كانت تحتفظ ببيضة مخصبة بين ثدييها • وعندما كانت تنام فانها كانت تعطى البيضة لواحدة من الجوارى لكى تدفئها على نفس الصورة • وكان هدفها هو تبين نوع ومصير جنينها • وعندما فقست البيضة وخرج منها كتكوت ذو عرف جميل شمل الابتهاج البيت كله • فقد كان الكتكوت علامة على أن المولود سوف يكون ذكرا ، وكان العرف علامة على أنه سوف يكون رجلا عظيما •

وفى ذلك الوقت كانت جيوش المنتصرين والجمهوريين

تقاتل بعضها فى معركة فيليبى (٤٢ ق٠م) ٠ وكان النصر حليف «المنتصرين» وقتل بروتس وكاسيوس ، بينما تضرعت كتائبهما طلبا للعفو ، وطلبت قبول انضمامها الى جيوش المنتصرين ٠ وبذلك ذوى آخر أمل للجمهورية ٠

وبعد شهرين (فى ١٦ نوفمبر ٤٢ ق٠م) ولد تيبريوس ٠

وكان العالم الذى ولد فيه تيبريوس يعج بالأحداث ٠ فكم من شعوب بيعت بأكملها فى سوق العبيد ٠ وكم من مدن نهبت نهبا منظما ٠ وكان كل رومانى تقريبا قد دخل (مضطرا أو مختارا) فى الحرب الأهلية ، وبالتالى فانه كان يواجه اما المجد والغنى واما الذبح أو التشريد ٠

وكان والد تيبريوس يدعى تيبريوس كلوديوس نيرو الاكبر ٠ وكان قائدا لأحد أساطيل يوليوس قيصر ، كما كان من كبار كهنة الديانة الأوليمبية ، كما أنه شغل مناصب كبيرة فى حكومة روما ٠ وبعد معركة فيليبى أعلن الوالد ولاءه لمارك أنتونى ٠ وكان يحسب أنه قد آمن مستقبله بذلك ٠ ولكن الذى حدث هو أنه لم تكد تمضى أسابيع قلائل حتى دب الخلاف بين «المنتصرين» ووقع تيبريوس الأب بين شقى الرحى ، فرأى أن ينجو بنفسه وعائلته من ذلك المأزق فهاجر من روما بعائلته واستقر فى مدينة بيروجيا ، التى تقع فى جبال الأبنين ، والتى طالما استعصت على الحصار ٠ وكان يحسب أنه سوف يعيش هناك فى آمان ٠ وكانت تلك هى غلطته الأولى ٠

فقد كان أغسطس وأنتونى قد تقاسما الامبراطورية

فكان شبه الجزيرة الايطالية من نصيب الأول · ورأى أغسطس أن يبدأ بتأديب أنصار مارك آنتوني ، وكانت بيروجيا تعج بهم · وكان شقيق مارك أنتوني (لوشيوس انتونيوس) قد استولى فعلا على حكم المدينة وراح يحصنها ويستورد لها المقاتلين والمصارعين والاسلحة ويخزن بها الأقوات · ولذا فان أغسطس بدأ أول مابدأ بها . فحاصرها وأجاعها حتى سقطت فى يده · ولم يضيع أغسطس (الذى كان لم يتعد العشرين من عمره بعد) وقتا فى اعطاء الرومانيين درسا رهيبا ، اذ انتخب ثلاثمائة من بين الثائرين ، وكان من بينهم فرسان ونبلاء وأعضاء فى مجلس الشيوخ ، وذبحهم واحدا بعد الآخر ·· قربانا لروح قيصر ·

ولم يكن تيبيريوس الأب من بينهم لانه كان قد فر الى نابولى ، حيث حاول أن يقود ثورة ضد أغسطس ، ولكنه فشل ، واضطر الى الهرب بعائلته فى قارب صغير الى صقلية · وكان القارب صغيرا ، وكان الهاربون عليه أكثر من حمولته ولذا فان واحدا منهم (فيليوس باتركيولوس) ، وكان صديقا لتيبيريوس الأب ، قتل نفسه لكى يعطى الآخرين فرصة النجاة ·

وكانت صقلية تحت حكم سيكستوس بومبى ، الذى كان قائدا بحريا غريب الطباع وكان مستقلا عن روما تقريبا ، ولكنه كان قد عقد تحالفا مع أغسطس · وبذلك لم تكن صقلية بالمكان الآمن لتيبيريوس الأب وعائلته ، ولذا فانه غادرها الى اليونان · وحتى وهم فى اليونان ، لم تخل حياتهم من مخاطر ، كان من أبشعها ماتعرضوا له من خطر الموت حرقا · وكان ذلك عندما اشتعلت النار فى غابة كانوا

يخترقونها . ومع أنهم نجوا من الموت الا آن النار آمسكت بشعر وثياب ليفيا وأحرقتهما .

وفى اليونان تلقى تيبيريوس الأب عفـوا من أغسطس فعاد للتو بعائلته الى روما . وكان عمر ابته اذ ذاك هو ثلاث سنوات ، وكان قد رأى فى هذه السنوات من المعارك والمذابح والكوارث مايمكن آن يكون قد رآه رجل معمر .

وفى سبتمبر من نفس العام (٣٩ ق.م) عاد أغسطس الى روما ، بعد جولة كان يفتش فيها على ممتلكاته فى بلاد الغال. وفى روما رأى ليفيا للمرة الأولى .

وكان عمر ليفيا وقتئذ هو سـبعة عشر عاما ، وكانت حاملا فى طفلها الثانى . ووقع أغسطس فى حبها ، فلم يتردد (بالرغم من كونها حاملا ومن كونها متزوجة) فى العمل على الاستيلاء عليها ، فقد كانت أربع سنوات من السلطة المطلقه كافية لأن تحول (هذا الذى كان متهما فى صباه بأنه الطرف السالب فى الجنسية المثلية وكان متهما بأنه أسلم نفسه فى هذا المجال ليوليوس قيصر) الى طاغية يعرف كيف يحصل على مايريد .

وكان زوج ليفيا يمثل عقبـة أمام رغبـة آغسطس . ولكنها كانت عقبة سهلة . أما العقبة الكبرى فكانت تتمثل فى القانون الرومانى ، الذى كان أغسطس لم يصل بعد الى حد القدرة على مخالفته . ولذا فانه لجـأ الى رجال القانون طلبا للفتوى التى تحقق له رغبته . وكان السؤال الذى وجهه اليهم هو «هل يجوز للمرأة المطلقة أن تتزوج على الفـور ، وهى ماتزال حامـلا من مطلقها ؟» . وكان رجال القـانون

يعرفون الجواب الذى كان يريده أغسطس ، كما أنهم كانوا يعرفون مصير من يقف فى سبيله • ولذا فانهم لم يترددوا فى الاجابة بنعم •• فمادامت المرأة متأكدة من حملها فانه لايوجد شك فى نسبة جنينها الى والده الأصلى • ومادام الشك فى نسبة الجنين قد زال فانها تستطيع أن تتزوج من غير مطلقها على الفور •

وكانت ليفيا متأكدة من حملها لأنها كانت فى الشهر السادس منه • أما عن تيبيريوس الأب فانه لم يتردد فى تطليقها • بل انه كان من الكرم بحيث تبرع بدفع دوطتها لأغسطس •••

وبقيت عقبة واحدة • فقد كان أغسطس متزوجا من احدى قريبات سكستوس بومبى ، وكان اسمها سكريبونيا ، وكانت حاملا فى شهرها الأخير • ولكن بومبى كان تحت سيطرة أغسطس • ولذا فان الأخير طلقها • وتم الطلاق فى نفس اليوم الذى ولدت فيه ابنتها جوليا • وذهبت ليفيا الى قصر أغسطس بعد أن تركت تيبيريوس الصغير فى رعاية أبيه • وبعد ثلاثة أشهر ولدت ابنها الثانى «دروسوس» الذى أرسل على الفور الى أبيه • فقد كان أغسطس طاغية ، ولكن ليس الى الحد الذى يحرم به والدا من أبنائه ••

أغسطس

ماذا كان شكل أغسطس ؟؟ ذلك الرجل الذى كان ظله يخيم على كل العالم الرومانى ٠

لقد كان متوسط الطول ٠ وكانت أعضاؤه وملامحه متناسقة ، وكان أشقر الشعر وكان حاجباه يمتدان عبر أنفه الرومانى وكانت عيناه شديدتا اللمعان ٠ وكان هو فخورا بهاتين العينين اللتين كانتا تقذفان بشرر مقدس ٠٠٠ وكان المنافقون يتظاهرون بأنهم لايستطيعون تحمل نظراته ، وذلك على زعم أن لهيبها كان يصيبهم بالدوار ٠ وكان ذلك يسره كثيرا ٠

وعلى صدره كانت توجد نقط تشبه (فيما زعموا) نجوم الدب الأكبر ٠ وفى كهولته ، كان قد فقد وسامته وفقدت احدى عينيه القدرة على الابصار ، وتسوست أسنانه ، وأصيبت ساقه بعرج خفيف ، وانتشرت البقع فى جسمه ٠ ولكنه كان دائما مهيبا وجليلا ٠ وقد أنقذت هاتان الصفتان

حياته · وكان ذلك حينما حاول مقاتل من الغال أن يقتاله · ولكنه ماكاد يواجه وجهه الهادىء الرصين حتى فقد شجاعته واستدار هاربا · ولقد كان أغسطس فى أوج وسامته وشبابه عندما سرق ليفيا من زوجها ، وكان من قبلها قد تزوج مرتين · وكانت زوجته الأولى هى ابنة زوجة حليفه مارك أنتونى ولكن زفافه عليها لم يتم لأنه تشاجر مع أمها فطلقها · ثم تزوج سكريبونيا ، التى كانت قد تزوجت مرتين من قبل وأنجبت طفلا من أحد زوجيها ، وكانت ميزتها هى أنها كانت من قريبات لوجى سكتوس بومبى · وكان الأخير يكره الأرض ويفضل البحر · وقد قضى عمره وهو يقود الأساطيل ويركز جهوده على حروب البحر · وكان لاينطق اللاتينية الا بصعوبة ، وكان يزعم أنه سليل اله البحر «نبتون» ·

ويقول الحكيم اللورد آكتون «ان السلطة تفسد الانسان· أما السلطة المطلقة فانها تفسده تماما» · وكان ذلك ــ كما هو فى كل مكان ــ صحيحا فى روما · وفى ذلك الوقت كان الوصول الى السلطة والاحتفاظ بها يتطلب قدرا كبيرا من القسوة والوحشية · ولقد كان أغسطس أميرا عظيما وعاقلا، استطاع أن يسجل اسمه فى التاريخ باعتباره هو الذى استطاع أن يسوس الامبراطورية بحكمة وبحزم · الأمر الذى جعل منها عالما أفضل وأكثر سلاما مما كان · ولكن ذلك كله تم على حساب دماء الأبرياء وأموالهم ·

وتفصيل ذلك أن الدفاع عن الامبراطورية وادارة الحكم فى مستعمراتها كانا موكولا الى الجيش · وكان الجيش يحتاج للمال · وللحصول على المال كان على فريق المنتصرين ــ فى

بادىء الأمر – آن يأخذوه ممن يمتلكونه • وكانت مدن المستعمرات هى هدفهم الأول ، ففرضوا عليها أفدح الضرائب واستنزفوا ثرواتها • ولقد أجبروا عددا من المدن الآسيوية – بحد السيف – على دفع ضرائب عشر سنوات مقدما • وكأن تنفيذ ذلك مستحيلا لأن تلك المدن كانت قد دفعت ضرائب عشر سنوات مقدما لجيوش الجمهوريين • ولهذا السبب فان المنتصرين لم يتورعوا عن نهب خزائن البلديات وبيع أملاكها فى المزاد ، ثم عن نهب أملاك الاهالى وبيعها فى المزاد بدورها • وعندما لم يكن ذلك يكفى لتسديد المطلوب فان الآباء لم يجروا أمامهم سوى أن يبيعوا أطفالهم الأحرار فى سوق العبيد •

وفى روما ، كان عدد من الأغنياء قد انضم الى الجمهوريين • وجاء الدور على هؤلاء ليدفعوا ثمن تلك الغلطة • وكان القانون يقضى بمصادرة أملاك المواطنين الخونة ، ولكنه كان يبيح لورثتهم أن يطلبوا استعادة هذه الأملاك • ولتفادى ذلك الاحتمال فانه كان يتم اعدام الجمهوريين وورثتهم معا •• حتى ولو كان هؤلاء الورثة مجرد أطفال •

وحين استقل أغسطس بحكم روما فانه لم يفعل أقل من ذلك • فقد كان عليه أن يدفع مرتبات نصف مليون جندى • ولذا فانه لم يتورع حتى عن ادراج أوصيائه هو فى قائمة الضحايا •

ومع انه كان يخشى من اغضاب الجنود فانهم كانوا أكثر خشية من غضبه هو • لأنه لم يكن يتسامح مع من ينهزم

منهم • فقد كان يصف القوات المنهزمة ثم يعدم كل عاشر رجل منهم •

أما عن الخصوم والأعداء فانه لم يكن يتسامح معهم أبدا • وكان أقل شك في ولاء أى انسان كافيا لاعدامه • وكان مجرد الشك هو الدليل القاطع فى نظر أغسطس وكان الاعدام هو عقوبته المفضلة • ولقد أمر باعدام فارس يدعى بيناريوس لا لشىء سوى أن الأخير كان يستمع باهتمام شديد الى احدى خطبه ، كما انه كان يدون فقرات من الخطبة على لوح من الشمع •

ولقد بلغت قسوة أغسطس حدا جعل صديق عمره «مايسيناش» يرتاع من أحكام الاعدام التى راح يطلقها واحدا بعد الآخر ، فى القضايا التى كانت تعرض عليه ذات يوم • ولم يفلت متهم واحد يومها من حكم الاعدام (١) ، فتناول مايسيناس لوح الشمع وكتب عليه «كفى أيها الجزار» ثم قذف باللوح بين أحضان أغسطس •

ولقد قيل عن اغسطس أنه كان يزيل شعر ساقيه بواسطة صدفة بحرحادة الحواف • وقيل عنه انه نتاج علاقة جنسية بين ثعبان خرافى وبين والدته (ذات ليلة فى معبد أبوللو) • الأمر الذى نتجت عنه اصابتها بمرض جلدى شديد كان يحرمها من الاستمتاع بالحمام (٢) •

---

(١) هذه هى طبيعه الطغاه فى كل زمان ومكان • والقتل لمجرد الشك كان تقليدا ثابتا لدى أباطرة الرومان • وكذلك كان يفعل جنكيزخان وخلفاؤه ، والحجاج بن يوسف وابو مسلم الخراسانى وهتلر وسائر الطغاه •

(٢) غالبا ، كان هذا المرض هو مرض الصدفية •

المعرب

وقيل عن أغسطس أيضا أنه كان ـ حتى فى شيخوخته ـ يهوى افتضاض العذارى وان ليفيا كانت تزوده بحاجته منهن .

ولقد قيلت عنه أشياء آخرى ، ثبت آنها غير صحيحة .

ومع كل ذلك فانه من الحقائق الثابتة آنه استطاع هو ومعاونوه أن يبنوا أقوى امبراطورية عرفها العالم وأطولها عمرا كذلك .

وكان الرجل العظيم الآخر . الذى ظهر خلال طفولة تيبريوس ، هو مارك آنتونى . وعندما قتل قيصر كان أغسطس غائبا عن روما . وكان أنتونى جنديا متمرسا ورجلا ناضجا فى الوقت الذى كان فيه آغسطس مايزال فى الثامنة عشر من عمره . ومع أن أنتونى أصيب بصدمة مروعة حين علم أن قيصر قد اختار آغسطس وريثا وحيدا له ، فانه لم يتردد فى التصدى لقتلته ، باعتباره آقرب وآحب الأصدقاء الى قيصر .

وعندما وصل أغسطس الى روما ، كان مارك أنتونى قد استطاع أن يحرز نصرا كبيرا .

فقد كان آستاذا فى فن الاخراج والتمثيل ، ولذا فانه أقام هيكلا خشبيا لفينوس فى ليلة واحدة . وفى الصباح التالى عرض جثة قيصر فى الهيكل ، وعرض الى جوارها تمثالا لقيصر من الشمع ، وكان التمثال يمج دما ساخنا من ثلاثة وعشرين جرحا . ومن فوق المنصة آلقى أنتونى مرثية بارعة آلهبت قلب روما بالأسى والغضب . ولقد بلغ من ثورة الجماهير آنها آشعلت النار فى الهيكل ـ تعبيرا عن حزنها على

قيصر ــ ثم راح الجنود يلقون برماحهم فى النار · وراحت النبيلات يتبرعن من أجل الانتقام من قتلة قيصر ، حتى أنهن تبرعن بكل مجوهراتهن ومن فوقها أيضا ثيابهن الخارجية · ولقد أفزع ذلك المنظر قتلة قيصر ففروا من روما ·

وعندما قتل قيصر كان أنتوني مفلسا ومدينا بما لايقل عن مليون دولار ولكن عندما وصل أغسطس ليتسلم ميراثه كان أنتونى قد سدد ديونه · أما تركة قيصر ــ أو على الأصح كل الممتلكات التى كانت قابلة للبيع بسرعة ــ فانها كانت قد اختفت ·

وبعد أن كان أنتونى هو أقرب أصدقاء قيصر الى الخطر. فانه صار آمنا كما أنه صار غنيا · وبذلك التفت الجماهير والأصدقاء من حوله · وبطريقة أو بأخرى ظهرت ــ أو لفقت ــ أوراق منسوبة الى قيصر · وكانت تلك الأوراق تشتمل على وصايا وهبات عديدة لأصدقائه ، وعلى رأسهم مارك أنتونى بالطبع ·

وبطبيعة الحال فان أغسطس الشاب كان يحترق غيظا· وكانت لديه أسئلة كثيرة محرجة عن مصير ميراثه · ولكن الوقت لم يكن مناسبا لالقاء هذه الاسئلة · فقد كان يحتاج الى مارك أنتونى بقدر ماكان هذا يحتاج اليه · وكان بروتوس وكاسيوس يجمعان الجيوش ويستعدان للمعركة الفاصلة · وبعد معركة فيليبى سقط آخر علم للجمهورية · وعندئذ لم يكن أغسطس بحاجة الى القاء أى أسئلة · فقد كان قد عرف كل شىء ·· عرف أن حليفه كان محتالا كبيرا ·

وفى خلال حياته ، أنفق انتونى اكثر من أربعة ملايين

دولار • وهـذا قدر أكبر من ان ينسب الحصول عليه الى السرقة وحدها • وصحيح أن أنتونى كان قد باع كل ما أمكنه ان يضع يده عليه من ثروة قيصر ، ولكنه كان قد استطاع ان يضع يده على آغنى أجـزاء الامبراطورية • فبعد معـركة فيليبى ، وباعتباره أقـوى المنتصرين ، اختـار لنفسه كل ممتلكات روما الشرقيـة التى كانت تشـتمل عـلى أغنى المستعمرات ، وكان من بينهـا مصر ، التى اسـتولى عليها أنتونى واستولى كذلك على ملكتها «كليوباترا» •

وبديهى أن الكثير من هذه الملايين الأربعة قد صرف على الجيوش التى كان يقودها أنتونى • ولكن مبالغا كبيرة منها راحت على لذاته • وفى مجال اللذات كان أنتونى أستاذا • فقد كان يحب الطعام الفاخر والمعيشة المرفهة • وكان يحب النساء ــ طبعا ــ ولكنه كان أيضـا يحب الغلمان • وكان يحصل على الترف واللذة آينما وحيثما كانا •

ولم تكن تلك الرذائل جـديدة على روما • فقـد كان يوليوس قيصر نفسه مشهورا بأنه «زوج كل امرأة وزوجة كل رجل» • ولكن مشكلة أنتونى كانت تتمثل فى آنه كان يمارس ذلك على نطاق كبير • فقد كان يحتفظ بحريم ــ من الجنسين ــ لايقل تعداده عن ٤٠٠ • وكان طباخوه يعدون له عددا ضخما من الأطباق كل يوم • وطبيعى آنه كان لايتناولها كلها وانما كان يؤلف وجبـاته من أفضـلها • وكان يعاقب بقسوة على الطعام الردىء الطهى • ولكنه كان آيضا كريما مع الطاهى الذى يجيد عمله • ولقد كافأ كبير الطهاة بفيلا فاخرة على مهارته فى تقديم طبق متفوق ذات يوم • وكانت

كليوباترا تعرف فيه هذا النهم ، ولذا فانها نجحت فى ارضائه بالمنتقى من أصناف الطعام .

وكانت كليوباترا (آخر ملوك البطالمة) اغريقية الأصل تماما . وكانت تعرف مافيه الكفاية عن الرومان الغزاة . وكان يوليوس قيصر قد غزا مصر ، وغزا كذلك كليوباترا وأنجب منها ولدا هو قيصرون . ولم تكن كليوباترا بالبارعة الجمال ولكنها كانت شقراء ، وكانت قوية الشخصية ولامعة الذكاء . ولذا فانها استطاعت أن تغزو أنتونى وأن تصبح سيدته وأم توأمين له . ثم أصبحت بعد ذلك زوجته . وكان على أنتونيو أن يتخلص من زوجته الرومانية قبل أن يتزوج من كليوباترا . وكانت تلك غلطة فادحة منه . لأن تلك الزوجة كانت هى أوكتافيا (شقيقة أغسطس) . ولقد كتب له أغسطس مستنكرا أفعاله . فرد عليه أنتونى «ماذا دهاك حتى صرت تعترض على علاقتى بكليوباترا ؟ انها زوجتى . فماذا عنك أنت ؟ هل أنت مخلص لليفيا ؟ .. اننى أقدم لك تهانئى لو أنك كنت — عندما تصلك هذه الرسالة — فى مخدعها هى بدلا من مخدع ترتوليا أو تيرينتلا أو روفيلا أو سالفيا أو تيتسينا» .

ولم يرتح أغسطس لهذه الرسالة . فقد كان فى الثلاثين من عمره ، وكان قد اكتمل اقتناعه بأن اقتسام السلطة خطأ فى خطأ وأن روما لايمكن تجزئتها وانه يجب أن يحكم الامبراطورية رجل واحد ، وأنه هو هذا الرجل .

وفى ذلك الوقت توفى تيبيريوس الأب ، وكان عمر ابنه الأكبر تسع سنوات . وقد ذهب تيبيريوس وشقيقه دروسوس (٥ سنوات) عندئذ ليعيشا مع أمهما ليفيا ، فى قصر

آغسطس • ولقد قام تيبيريوس بدوره المطلوب فى جنازة والده • اذ وقف فى الهيكل وألقى مرثية ناجحة • ولم يكن ذلك غـريبا ، لأنه كان قد تلقن الدين والعـلم والأدب على أيدى أساتذة ممتازين من الاغريق والرومان • وفى قصر أغسطس حصل على أساتذة أعرق وأفضل • ولعله كان ، فى ذلك الوقت ، هو أفضل الصبية علما وأدبا فى روما كلها •

وكانت جـوليا ابنـة أغسطس من زوجتـه السـابقة «سكريبونيا» تعيش أيضا فى قصره وكانت قد ولدت قبـل دروسوس ببضـعة أشهر • ولذا فان الأطفال الثلاثة راحوا يلعبون معا ويشـتركون مع أغسطس وليفيا فى الحفـلات والمناسبات العامة ، وكانت تلك الحفـلات والمناسبات كثيرة جدا •

ولم يكن مطلوبا من جوليا أن تتابع دراسـاتها بنفس القـدر المطلوب من الولدين • ولذا فان جهـد المعلمين كان مركزا على تيبيريوس ودروسوس ومارسيللس (ابن آكتافيا ــ شـقيقة أغسطس ــ من زوجهـا الأول ، وهـو غير مارك أنتونى) • وكان على الثلاثة أن يكملوا دراساتهم بكل جد ، وان اختلفت أساليبهم فى التحصيل • فكان تيبيريوس يتابع دروسه بجد واهتمام ، وكان دروسوس يتابع دروسه بغاية اللطف أما مارسيللس فكان يميل الى التهريج • وكان السبب فى اصرار أغسطس على تعليمهم على أعلى مستوى هو أنه كان يرى أن الامبراطورية قد أصبحت ملكا خالصا له وبالتالى فان حاكمها من بعده يجب أن يكون أحد ورثته • وكان هؤلاء الثلاثة هم ورثته الطبيعيون وكان آغسطس مصمما على أن يجعل خليفته كفؤا للحكم •

ولكن كان على أغسطس أن يبدأ أولا باحكام قبضته على الامبراطورية وأن يتخلص من أعدائه ومنافسيه ٠

ولذا فانه أجبر ليبيدوس (ثالث المنتصرين) على الانزواء والبعد عن الحياة العــامة ٠ ثم وجــه التفاتة الى سكستوس بومبى ، الذى كان ـ كما قلنا ـ يعتقد أنه من سلالة نبتيون وكان يتظاهر بالجهل باللاتينية ويرتدى ملابسا خضراء اللون بدلا من الملابس الرومانية البيضاء٠ وأخيرافانه كان يتعرض بأساطيله للسفن التجارية القــادمة بالتموين والقمح من المستعمرات (كان الأثرياء من الرومان يستنكفون أن يكون زراعا للحبوب) ٠

وقد بنى أغسطس أسطولا ضخما ثم أسلم قيادته لماركوس أجريبا ، الذى كان قائدا بحريا بارعا (١) وسياسيا ماهرا ، وكان يقيم الحمــامات العامة للشعب مجــانا ، وكان يمتع الشعب بحفلات المصارعين الدموية ٠

وقد استطاع ماركوس أجريبا أن يلقن بومبى دروسا بليغة وأن يهزم أسطوله فى معارك متتابعة وأن يفتح الطريق للسفن القادمة بالقمح والتموين منمصر وافريقيا٠ وبعدئذ ألقى أغسطس بثقله كله فى اتجاه مارك أنتونى ٠ وكانت المشكلة هنا هى أن روما كانت قد فقدت الكثير من رجالها ومن ثرواتها فى الحروب الأهلية السابقة ولم يكن من السهل على

---

(١) كان أجريبا هو قائد الأسطول الرومانى الذى انتصر على اسطول أنتونى وكليوباترا فى معركة أكتيوم (٢ سبتمبر سنة ٣١ ق٠م) ٠ وقد بدأ أجريبا المعركة بالتقهقر بجناحه الأيسر فتبعته سفن أنتونى (وكانت ثقيلة) وتناثرت من خلفه وعندئذ استدار أجريبا (بسفنه الخفيفة) وأطبق عليها بجناحيه ، وأغرقها الواحدة بعد الأخرى ٠

أحد أن يشعل حربا أهلية جديدة • وكان أغسطس يريد أن يحارب أنتونى • وكان واثقا من أنه سوف ينتصر عليه • ولكنه كان يريد أن يكون أنتوني هو البادئ • أما أنتونى فانه كان بدوره لايريد أن يبدأ بالحرب ولذا فانه لم يبال بوسائل الاستفزاز التى راح أغسطس يلاحقه بها •

وطلب أغسطس نصيحة ليفيا • وطوال حياته ، كان أغسطس يأخذ بنصائح ليفيا فى مشاكله ومشاكل الدولة ، ولم تخذله ليفيا قط • وكانت نصيحة ليفيا فى هذه المرة هى «لاتعلن الحرب على أنتونى وانما اعلنها على كليوباترا • فهى ليست رومانية • ولن يرفض الرومان محاربتها وليفعل أنتونى بعد ذلك مايشاء» •

وأعلن أغسطس الحرب على كليوباترا (١) • وبديهى أن أنتونى اختار أن يحارب الى جانب زوجته • واشتعلت الحرب • وراحت الكتائب الرومانية تتقاتل فى سبيل السيطرة على الامبراطورية •

والتقى الفريمان فى معركة أكتيوم •

ويقع رأس أكتيوم على خليج امبراسيان فى اليونان • وكانت جيوش أنتونى تحتل أحد شاطئ الخليج ، وكانت جيوش أغسطس تحتل الشاطئ الآخر • وكانت الأرض من حول الخليج لاتسمح بالمناورة وحرية الحركة ولذا فان كلا

---

(١) شن اغسطس حربا دعائية هائلة ضد كليوباترا • ونجح فى تصويرها بصورة العدوة لروما والمراة المتهتكة الخائنة • ولقد تاثر الغرب كله بهذه الدعاية ومايزال حتى الآن يرى كليوباترا على ضوئها • وقد دافعت أقلام قليلة عن كليوباترا وكان من بينها قلم أحمد شوقى (فى مسرحية « مصرع كليوباترا ») •

المعرب

من الجيشين بقى فى مكانه ثم راح يقـذف الجيش الآخـر بالشتائم . وظهر أسـطولا الفريقين فى المعـركة . وكان أسطول روما مكونا من سفن ذات شراع واحد . وكانت هذه السفن تعتمد فى الحركة والمناورة على مجاديفها وكانت تلك يتكون من سفن ضخمة . وكانت سفينة مارك أنتونى بالذات تحتوى على ١٠ طبقات من المجاديف ، وكان عدد المجدفين بها من العبيد لايقل عن خمسمائة ، بالاضافة الى مائتى مقاتل على سطحها .

وكان تكتيك القتال البحرى يعتمد فى ذلك الوقت على مناورة التناطح ثم الالتحـام والقتال يدا بيد فوق أسـطح السفن . ولم يكن ذلك مناسبا لأغسطس فى مواجهة الضخامة التى كانت تتصف بها سفن الاسطول المصرى ، التى كانت مزودة أيضا بدروع من النحاس . ولذا فان أغسطس لجأ الى تكتيك جديد . اذ راحت سفنه تطلق بقذائف المنجنيق على سفن أنتونى وكليوباترا من بعيد . وكانت كل سفينة مصرية تتعرض لقذائف ثلاث سـفن رومانية فى وقت واحـد من جوانب مختلفة . وكان بحـارة السـفن الرومانية يطلقون أيضا السهام المشتعلة وكرات اللهب بالآلاف .

ونجح هذا التكتيك فراحت النيران تشتعل فى سـفن أنتـونى وكليوباترا . ولقى آلاف الرجـال مصارعهم .. اختناقا بالدخان أو احتراقا باللهب أو غرقا فى الماء . ومن كان منهم ينجو من ذلك كله فانه كان يقع بين أنياب القرش التى راحت تتقاطر على الخليج . ومع أن القتال كان يتوقف فى العادة عند غروب الشمس فانه استمر فى أكتيوم جزءا

من الليل . ولقد نجح أسطول أنتونى وكليوباترا فى ايقاع خسائر ضخمة بالاسطول الرومانى . ولكن النصر فى النهاية كان للأخير .

وتحولت سفينة كليوباترا الى مدخل الخليج واتجهت الى مصر وتبعتها سفينة أنتونى . وبدأت السفن الباقية من أسطولهما تستسلم . ومع أنهما عادا الى مصر سالمين الا أنهما كانا قد فقدا كل شىء . وصار أغسطس سيدا على العالم .

الحياة فى روما

كان تيبيريوس قد بلغ الثالثة عشر من عمره عندما كان أغسطس قد حصل على النصر النهائى فاستولى على مصر ، وانتحر أنتونى وكليوباترا ٠

وكان الرومان يحتفلون على نطاق هائل بانتصاراتهم ، بالمواكب والاستعراضات وحفلات المصارعة (كان الأسرى يجرى تدريبهم فى مدارس المصارعين ، ثم يدفعون الى ساحات الملاعب على أن يقاتلوا بعضهم حتى الموت ، وكان بعضهم يدفع وهو أعزل لكى تفترسه الوحوش فى تلك الملاعب) (١)، وكانت تلك الاحتفالات تستنزف مبالغ ضخمة وكان المفروض أن يدفع المحتفى به تلك المبالغ ٠ ولكن ذلك لم يكن بالأمر الصعب لأن القائد المنتصر كان يحصل من الغنائم على مايكفل له ثراء فاحشا ٠ ومن الجانب الآخر فانه كان يحصل من تلك الاحتفالات على المجد والشهرة ، وكان يكسب من أصوات الجماهير مايتيح له الحصول على أكبر المناصب ٠

(١) انظر كتاب « الموت فى الملاعب الرومانية » للمعرب ٠

وعلى نفس الخط سار أغسطس فأقام احتفالات هائلة وكان موكب نصره حافلا بالقـوات وبالأسرى وبالغنائم • وكان يركب عربة يجرها جوادان مطهمان • وكان تيبيريوس يمتطى الجواد الأيمن ، بينما كان مارسيللس يمتطى الجـواد الأيسر •

ومن خلف المركبـة كانت تسير مركبـة تحمل تمثـالا لكليوباترا (وعلى صـدرها نموذج للثعبان ، الذى انتحرت به) • وقد فعل أغسطس ذلك لانه كان حريصا على اقناع الشعب بأن عدوه كان هو كليوباترا فقط ، وأن الحرب لم تكن ــ كما هى فى الحقيقة ــ حـربا بين رومانى ورومانى وانما كانت بين روما وكليوباترا فقط •

وكان تيبيريوس فى ذلك الوقت قد أصبح فتى مرموقا ، تبدو عليه علامات الذكاء والحيوية • كما راحت ترتسم على وجهه وصفاته تلك الملامح التى ميزته فيما بعد • فقد كان على الأغلب هادئا ومنطويا على نفسه ، وكان مؤدبا ولكنه كان يستطيع أن يكون شرسا اذا غضب • وكان من الواضح أنه كان يفتقر الى الحب ، ومن المؤكد أن ربيبه أغسطس لم يكن يمنحه شيئا منه • ولقد تنبأ واحد من معلميه (تيودروروس الجادرانى) بمستقبله حين قال عنه انه «طين معجون بالدماء» • أما عن قدرته الخطابية المبكرة فانها ذوت بسبب ميله للعزلة والبعد عن الناس •

وكانت أمه ليفيا تحبه بغير شك ولكنها كانت مشغولة بأعبائها الضخمة وبالعمل على الاحتفاظ بحب زوجها • فقد كان عدم انجـابها لأطفال منـه نقطة ضعف بطبيعة الحال • ولذا فانها ــ بعد فضيحة زواجها من أغسطس ــ عاشت فى

جهد متصل من أجل ادارة بيتها وراحة زوجها وتربية ولديها (تيبيريوس ودروسوس) وتربية جـوليا (ابنة آغسطس) • وبالجهد المخلص المتصل استطاعت ليفيا أن تنجح في ذلك كله وأن تصبح الشريك المخلص لأغسطس فى الحـكم • ولكنها أيضا كانت تعيش فى تواضع وتحافظ على سمعتها • وليس معنى ذلك أنها كانت متقشـفة فقد كان لديها جـوار كل واجبهن هى طى ملابسها وجوار متخصصات فى حفظ هذه الثياب • وكان لكلبها المفضـل جارية مختصة به فقط • وكان لديها جوار متخصصات فى العناية بأذنيها ، وجـوار متخصصات فى تسريح شعرها • وكان لديها عبيد يصنعون الجواهر وعبيد يصنعون العطور • وهذا كله بالاضافة الى الجوارى المختصات بمعاونتها على ارتداء ثيابها وعلى كتابة وقراءة رسائلها • وبستمائة من العبيد ، كانت ليفيا تعيش عيشة متواضعة ، بالمقارنة الى زوجات بعض النبلاء اللائى كن يمتلكن الآلاف من العبيد • وكانت قصور آغسطس تحمل نفس الطابع من التواضع • وكان قصره (الذى يقع فوق تل البـالاتين ــ والذى اقتبس منه اسـم «بالاس» علما على كل قصر ــ) لايحتوى على رخام أو موزايكو •

وكان تيبيريوس يحب والدته • ولكن شاغلها ــ التى كانت تمثل كل فضائل المرأة الرومانية ــ لابد وأنها كانت تبعدها كثيرا عنه • ويمكن لنا أن نتخيل مدى مشاغلها اذا علمنا أنه بالاضافة الى ادارة البيت الكبير (الذى كان يحتوى على آلاف الخدم والحجات والحاشية ــ بالاضافة الى العبيد) كان عليها أن تعاون زوجها فى شئون الحكم •

وفى ذلك الوقت لم تـكن التخصصات الوظيفيـة التى

نعرفها الآن قد ظهرت بعد • فقد كان على أغسطس أن يقوم ـ الى جانب أعبائه فى الحكم وقيادة الجيوش وادارة المستعمرات ـ بالبت فى القضايا ، لأنه كان هو أيضا القاضى الأكبر • وكان من حق المواطنين أن يرفعوا قضاياهم وشكاواهم اليه مباشرة • ومن بعد ذلك فانه كان أيضا كبير الكهنة للدين الرومانى ، وكان عليه أن يؤدى الطقوس المطلوبة منه بهذه الصفة •

ومن هذه الصورة تتضح أسباب انطواء تيبيريوس وانغماسه فى تحصيل العلم والأدب حتى نبغ ـ بمقياس العصر ـ فيهما • ومن حياة القصر تعلم تيبيريوس أيضا الكثير • فقد كان القصر هو مهبط زوار روما من الملوك والحكام الخلفاء أو التابعين مباشرة للامبراطورية • وكان الرسل والامراء والسفراء يتقاطرون على القصر من كل مكان، مثل ألمانيا وانجلترا ومصر وفلسطين وسوريا واسبانيا واليونان والمغرب • ولقد رأى تيبيريوس كل هؤلاء الناس وخاطبهم واستمع اليهم وتجادل معهم • ومن أغسطس تعلم تيبيريوس كيف أن المصلحة وحدها هى المقياس الصحيح للعلاقات ••، فلم يكن أغسطس يبالى بأن يصادق عدوا أو يعادى صديقا مادامت له مصلحة فى ذلك • كما أن تيبيريوس تمرس أيضا بطقوس الديانة وأساليب الحكم • وذلك لأن أسرة أغسطس كانت تشترك كلها فى تلك الطقوس ، وحتى التماثيل التى كانت تقام لقيصر ، كانت تضاف اليها تماثيل لأفراد أسرته بما فيهم تيبيريوس • وحتى القتال تدرب عليه تيبيريوس وهو مايزال صبيا • فقد كانت تقام فى كل عام معركة يتقاتل فيها الصبية احياء لذكرى معركة طروادة •

ومع أنها كانت معركة تمثيلية فان الصبية كانوا يحيلونها الى معركة حقيقية فى بعض الأحيان · وكان تيبريوس يتولى قيادة أحد الفريقين · وبعد أن أصيب صبيان من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ باصابات خطيرة فى تلك المعارك ، الغيت نهائيا ·

وطبيعى أن تيبريوس كان يستمتع بالظهور فى تلك المناسبات وطبيعى أيضا أن يكون حلم الحصول على العرش قد راوده بشكل أو بآخر ·

ولكن كان من الضرورى لمن يريد أن يصبح امبراطورا أن يكون أولا رجلا ذا أهمية · وكان تيبريوس يطمع فى أن يكون رجلا عظيما وكان يرغب فى أن يتبع الطريق التقليدى ، وهو الجندية · ومن بعدها ينتقل الى المناصب القيادية فى حكومة روما · وكانت هذه المدينة تحتاج الى جهاز حكومى ضخم ، لأنها كانت تتضخم بدورها من يوم الى يوم · وكان عدد سكانها فى ذلك الوقت يتجاوز نصف مليون نسمة · وكانت المدينة تختنق بسكانها ، لأنوسائل المواصلات لم تكن قد تقدمت الى الحد الذى يتيح انشاء الضواحى · وكانت بيوت الفقراء تتعرضللسقوط وللحرائق باستمرار · وكان استخدام العربات فيها ممنوعا طوال النهار من فرط الازدحام · وكانت المدينة تعج باللصوص والقوادين والمحتالين والقتلة والمجرمين من كل نوع · وكان السير فيها ليلا من الخطورة بحيث كان لابد من اصطحاب حرس مسلح والا تعرض السائر لخطر السلب أو القتل ·

ومن الجانب الآخر فان الاحتفالات والأعياد كانت لاتنقطع · فكان يقام فى فبراير احتفال لوبركاليا ، حيث

كان يجرى الرجال فى الشوارع وهم عراة ويضربون من تصادفهن من النساء بأسواط من جلد الماعز .. وذلك جلبا للخصوبة . وفى ابريل كان يقام احتفال باريليا ، وفيه كان الناس يقفزون من فوق النيران . وفى مايو كانت عـذارى الهيكل يلقين بتماثيل من القش فى نهر التيبر لارضاء اله النهر . وفى يونيو كان يحيى عيد آلهة الثراء . وفى أواخر ديسمبر كان يجرى احتفال يستطيع فيه كل انسان أن يفعل أى شىء يخطر على باله من عبث أو تهريج . وفى رأس السنة كانت الاحتفالات تفوق كل خيـال فى فخامتها أو ترفهـا ، وكان الناس يأكلون فيه عسل النحل ، وكان الأغنياء يقدمون هدايا ثمينة جدا للأباطرة (وكان بعض الأباطرة ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر لكى يوازن ميزانيته بتلك الهدايا) . أما عن المعابد والملاعب فكانت بالمئـات . وقد بقى منها معبد أجريبا «البانثيون» حتى اليوم . وكان أغسطس من هواة البناء والتعمير ، ولذا فانه أقام الكثير من المبانى الفخمة فى روما ، وفى ذلك قال «اننى وجـدت روما مبنية بالطوب ، وتركتها وهى مبنية بالرخام» .

وسواء أكان تيبريوس مرشحا للعرش أم لم يكن ، فانه كان من المؤكد أنه كان يقف على أعلى قمـة فى روما . فقد كانت تلك المدينة أشبه بالجيش الذى يوجـد فيه الجنـدى وضـابط الصـف والضـابط والجنرال . وكان تيبريوس جنرالا ، حتى فى ذلك السن الصغير .

وفى روما كان نظام الطبقات حقيقة واقعة وقانونية . وكان تيبريوس ينتمى الى أعلى طبقة بغير شك .

وكانت أعلى طبقة هى طبقة السناتو (الشيوخ) . وكانت

صفة «الشيوخ» معنوية أكثر منها مادية بمعنى أنه كان يمكن للصبى أن يكون سناتورا (شيخا) مادام ينتمى الى تلك الطبقة ٠ وكان السناتو ينتخب كل عام قنصلين لادارة الحكم ٠ ولم تكن مدة القنصل لتجدد أكثر من ثلاث مرات ٠ ولكن السناتو كان يسيطر على القناصل فى عهد الجمهورية ٠

وكانت الطبقة التى تلى طبقة السناتو هى طبقة الفرسان «اكويستريان» ٠ وكانت الشروط المطلوبة فى الفارس هى أن يكون مالكا لما يعادل عشرين الف دولار ، وبديهى أن ذلك كان يعنى أن المال (وليس الأصل) هو مقياس الانضمام الى تلك الطبقة ٠ وكان للفرسان برلمانهم الخاص ، الذى كانت سلطاته أقل بكثير من سلطات السناتو ٠

وكان الفارس يلبس خاتما من الذهب وكان قميصه مطرزا بشريط قرمزى ٠ وكذلك كان قميص السناتور (وان كان شريطه أعرض) ٠ وكان الشريط القرمزى محرما على الطبقات الأخرى ٠

وكانت الطبقات التالية هى طبقة المواطنين والطبقة المتوسطة وطبقة العبيد ٠ ولم يكن لتلك الطبقات لباس معين ٠ وكان البعض قد فكر فى تمييز العبيد بأردية أو علامات خاصة ٠ ولكن العقلاء تنبهوا الى أن ذلك يؤدى الى المتاعب ، اذا تبين العبيد ضخامة عددهم ٠ ومن بعد ذلك كانت طبقة الرجال الأحرار ٠ ولم يكن أهل هذه الطبقة من الرومان ٠ وانما كانوا من العبيد المحررين أو من أبناء الشعوب الأخرى ٠ وكان بعض العبيد المحررين يتمكن من تكوين ثروة ٠ ولكن معظمهم كان يعيش فى أكثر من الفقر المدقع ، لأن القانون الرومانى كان يبيح للسيد أن يعتق

عبده بعد أن يشترط عليه أن يدفع له معظم دخله طوال حياته ·

وعن الطبقة المتوسطة نلاحظ انها لم تكن من طراز الطبقة المتوسطة فى الحاضر · وذلك بمعنى أنها كانت تتكون من أبناء العائلات الكبيرة التى أخنى عليها الدهر ، ولذا فانهم كانوا أعلى من طبقة العامة ولكن غالبهم كان أفقر من العامة بكثير ·

ولم يكن للعبيد أى حق من الحقوق، وكان للسيد أن يقتل عبده حتى بغير سبب · وحتى حق الطعام والمأوى لم يكن للعبيد · بمعنى أن السيد لم يكن مجبرا على اطعام عبيده أو ايوائهم ، وكان يستطيع أن يطلب من العبد أن يعمل للحصول على القوت ثم يستولى بعد ذلك على دخله · وكان من حق السيد أن يجلد عبيده أو يجبهم أو يهتك أعراضهم · بل انه كان من حقه أن يأكل لحم عبيده ·

وعلى سبيل المثال ، كان «فيديوس بوللو» يذبح العبيد ويطعم الأسماك لحومهم ، ثم كان هو يأكل تلك الأسماك · وأخيرا فان العبد لم يكن له أى حقوق على زوجته أو أولاده، وكان القانون يعتبر ابن الجارية عبدا حتى ولو كان أبوه من الأحرار · وأخيرا فان العبد كان محروما تماما من أى حق فى رد عدوان سيده عليه · وكان العبد الذى يقتل سيده يعدم فورا هو وجميع عبيد ذلك السيد ·

وكان العمل فى روما موكولا كله الى العبيد (أكثر من ثلاثمائة ألف فى روما وحدها) · وكانت سواعد العبيد هى التى تبنى البيوت وتجدف فى السفن وتصنع الثياب

والطعام وتعمل فى المناجم وتنتج كل السلع والمصنوعات والمزروعات • ومع ذلك فكان هناك من العبيد من يقوم بأعمال هينة مثل اعداد الحمام وتعطير مياهه • وكان بعضهم متخصصا فى الفنون (الغناء ـ الرقص ـ النحت ـ الرسم)• وكان البعض الآخر يعيش فى رفاهية نسبية لأنه كان يقوم بتربية وتعليم أبناء سيده • وكان العبد المشوه مطلوبا للتسلية (القزم ـ الأعرج ـ الأحدب •• الخ) ، وكان ذلك النوع رائجا الى حد أن بعض السادة كان يشوه بعض عبيده خصيصا لهذا الغرض •

ومن أجل اشباع شهوات السادة كان العبيد (من الجنسين) رهن الاشارة ، وكانت توجد طبقة معينة من ملاك الجوارى هى طبقة «اللينو» ، وكان أفرادها يملكون ويديرون عددا كبيرا من بيوت البغاء • وكان عقاب العبد الهارب هو الصلب أو العمل الشاق جدا فى مؤسسة كانت تسمى بالأرجستولم • وكان العبيد يفضلون الصلب على العمل فيها •

ومع ذلك فقد كان هناك من السادة من يعطف على عبيده ويعالجهم عند المرض ويبكيهم عند الموت •

الجنرال الشاب

في عام ٢٧ ق٠م كان تيبيريوس في الخامسة عشر من عمره ٠ وكان فتى طويلا قويا عريض الأكتاف ٠ وكانت الطراوة تبدو على ملامحه ٠ ولكن تلك ظاهرة مألوفة بين الفتيان ٠ وكان أنفه رومانيا مثل أنف والدته ٠

وكان أبناء العائلات الكبيرة يتعلمون فنون القتال والجنس مبكرا ٠ وكانت لدى تيبيريوس جواريه المخصصات لتعليمه فنون الجنس وتدريبه عليها ٠ وكان لديه العبيد المخصصون لتدريبه على فنون القتال ٠ ومع أنه كان أصغر من سن الزواج فانه لم يكن أصغر من أن يفكر فيه ٠

وكان الرومان يزوجون أبناءهم وبناتهم مبكرا ولكنهم كانوا لايتركون لهم حق الاختيار ٠ لأن الزواج كان ارتباطا بين العائلات أكثر منه علاقة خاصة بين الزوج وزوجته ٠

وبالنسبة لتيبيريوس فقد كانت هناك ــ مثلا ــ جوليا «ابنة أغسطس» ٠ فقد كانت في الحادية عشر ، أي قريبة

من سن الزواج ، ثم أنها كانت ابنة الامبراطور وكانت أيضا مرحة وجذابة • وعن تيبيريوس نفسه فان كان لايميل للمرح • ولكنه كان مثقفا على مستوى عال • وكان يجيد الاغريقية ويحب الأدب الاغريقى • وكان قد درس كثيرا من علوم عصره مثل علم الفلك وعلم تفسير الأحلام • وكان ينظم بعض الشعر ويجيد كتابة الخطب والرسائل •

ولكى تكتمل شخصيته كان لابد له من ممارسة حياة الجندية • وفى نهاية عام ٢٧ ق•م صحبه أغسطس معه فى رحلة تفتيش على القوات فى بلاد الغال • وكذلك صحب مارسيللى • ولم يشهد تيبيريوس قتالا فى تلك الرحلة • ولعل قصد أغسطس كان هو أن يريهما مدى اتساع الامبراطورية ونظم حكم البلاد المحتلة •

ولقد راح أغسطس ينتقل (ومعه تيبيريوس ومارسيللس) من نقطة خارجية الى أخرى • وراح ينشىء المدارس لتعليم اللغة اللاتينية هناك ، ويضع نظم تحصيل الضرائب ويفتش على القوات ، ويعيد بناء المدن المدمرة • وعندما عاد الصبيان الى روما كانا قد أصبحا رجلين • وكان عليهما أن يتدربا على أمور الحكم •

وقد كان مارسيللس فى الثامنة عشر من عمره ، وكان شابا لامعا ونشطا وكان يشعر بأهميته ، وكان الكل يحبونه، ولكنه كان أيضا قادرا على اجتلاب العداوات لانه كان سريعا الى العدوان اذا ماهو استثير •

أما تيبيريوس فانه كان أقرب الى العزلة والانطواء ، كما أنه كان صبورا وكان قليل الكلام وحريصا فيه ، لدرجة انه

كان يتوقف في وسط الجملة لكي يبحث عن اللفظ المناسب لما يقصده . ويقال انه آخذ ذلك الطبع من آغسطس الذى كان قد بلغ من حرصه أنه كان يؤثر آن يسجل مايريد أن يقوله ــ حتى لزوجته ــ كتابة .

وقد منح أغسطس كلا من مارسيللس وتيبريوس منصبا كبيرا . ولكنه أعطى مارسيللس شيئا آهم .. فقد آعطاه جوليا ، زوجة له .

وكان الزواج مناسبة عظيمة . وقد فوض أغسطس أمر ترتيب شئون وحفلات ذلك الزواج الى قائده الكبير (وأهم رجل فى الامبراطورية) ماركوس أجريبا .. بطل معركة أكتيوم والمنتصر على سكستوس بومبى . ومن اللحظة الأولى اصطدم مارسيللس بأجريبا . ولم يكن آحدهما بقادر على أن ينتصر على الآخر ، فقد كان كلا منهما مقربا وآثيرا لدى الامبراطور .

وكان أجريبا من الذكاء بحيث آنه لم يتردد فى تنفيذ كل مطالب مارسيللس . وآكثر من ذلك آنه راح يتجنب اللقاء به . وفى نفس الوقت اتجه آجريبا بصداقته نحو تيبريوس ، فقد كان يقدر ثقافته ويحب هدوءه . ومن هنا يوطد علاقته به . صحيح آن تيبريوس قد لايصبح امبراطورا ولكن من المؤكد أنه سوف يكون قائدا عظيما أو صاحب منصب حكومى كبير . كما آنه كان من المؤكد آنه يصلح صهرا لأجريبا . فقد كانت لأجريبا ابنة فى الخامسة عشر ، هى فيبسانيا أجريبينا .

وقد درس آجريبا موضوع هذا الزواج مع آغسطس

وتيبيريوس • ووافق أغسطس أمـا تيبيريوس فقـد كانت قرحته طاغية ، لأنه كان يحب فيبسانيا •

وكما أشرنا من قبل ، فان الرومان كانوا يفرقون بين الزواج وبين غيره • فقـد كان الزواج فى نظـرهم صفقة عملية ، لربط العائلات ببعضها ، أو للفوز بخير أم للابناء ، أو للحصول على دوطة ضـخمة • أما الجنس فانه كان لهـوا مباحا (للرجال) ، ولم يكن فى حد ذاته هو هدف الزواج • وعن الحب فان الرومان كانوا يعتبرونه جنونا مطلقا • ولقد كتب الشعراء ، مثل كاتالوس وأوفيد عن الحب ولكنهم لم يتحدثوا عنه بصفته من عناصر الزواج وانما بصفته عنصرا نفسيا مطلقا •

ومع ذلك فان الزواج على آساس الحب كان موجـودا بطبيعة الحال • وكان زواج أغسطس بليفيا مثلا على ذلك • ولكنه على أى حال لم يكن منتشرا • وكان الرجل الذى يعلن عن حبه لزوجته يصبح موضعا للاستنكار كما لو كان من مدمنى الخمر •

ولقد عاش الجميع (مارسيللس وجـوليا ، وتيبيريوس وفيبسانيا) فى قصر أغسطس • وحتى أجريبا ، انضم اليهم عندما احترق قصره •

ولكن الجيرة بين آجريبا ومارسيللس كانت مصدر متاعب للأول • لأن مارسيللس لم يكن يترك فرصة للاصطدام معـه وألا ينتهزها • وكان مارسيللس حينذاك فى العشرين من عمره ، وكان هو الوريث المحتمل لأغسطس • ولذا فانه لم ير سببا لمهادنة أجريبا • ولم يتوان آجريبا عن العمل على

البعد عن مارسيللس ، فافتعل أسبابا تدعو الى سفره الى المقاطعات الشرقية وترك روما لمارسيللس .

وبينما كان أجريبا فى سفره اجتاح وباء التيفود روما. وكان مارسيللس من بين ضحاياه ، فمات به ، ومات معه أكثر من ١٠٠٠٠٠ رومانى أيضا . وكان علاج التيفود الوحيد هو كمادات الماء المثلج وكذلك الحقن بالماء المثلج .

ولقد أصيب الامبراطور بالمرض منذ بداية الوباء . وتم استدعاء أجريبا على عجل . وعندما تبين الامبراطور مدى الخطر الذى كان يحيق بحياته ، فانه راح يبحث مع زوجته ليفيا فى أمر وراثة العرش . ومن أول وهلةرفض أن يرشح تيبريوس أو شقيقه دروسوس ، وحتى مارسيللس (ولم يكن قد أصيب بالمرض بعد) كان مرفوضا . فمن وجهة نظر أغسطس ، كان هؤلاء مايزالون صغارا على الحكم . وكان أغسطس قد عانى الكثير من المتاعب عندما تولى الحكم وهو مايزال شابا تنقصه الخبرة ويفتقر الى الأصدقاء والحلفاء الناضجين .

واتخذ أغسطس قراره . فاستدعى أجريبا وعهد اليه بالعرش من بعده وأعطاه خاتمه .

ولكن المعجزة حدثت ، وعوفى أغسطس من المرض . ولعل علاج طبيبه الاغريقى أنتونيوس موسى (بالكمادات والحقن المثلجة) كان له دخل فى الشفاء. وقد استعاد أغسطس صحته تماما فى وقت قصير . وأعاد أجريبا الخاتم الى أغسطس ثم رحل ثانية الى الشرق . ومن بعد أغسطس أصيب

مارسيللس بالمرض ومات تاركا من خلفه جوليا وقد أصبحت أرملة ٠

ولم يكن من المناسب طبعا أن تبقى جوليا أرملة ٠ كما أن أغسطس لم يجد لها كفئا من بين الشباب ٠ ولذا فانه جمع بين مصلحتها ومصلحة الامبراطورية فى آن واحد ، فزوجها بأجريبا ٠ وكانت جوليا فى الثامنة عشر ، وكان آجريبا فى الأربعينات من عمره ٠

وكان أجريبا فى سن الهدوء والرصانة آما جوليا فانها كانت تتفجر بالحيوية وبالشباب ٠ وحين لم يستطع أجريبا أن يعوضها عن شباب وحيوية مارسيللس فانها راحت تبحث عنهما بنفسها ٠ ومع آن سـلوك جـوليا المشـين كان يهم تيبيريوس بصفته شقيقها (بحكم زواج أمه ليفيا من أغسطس) وبصفته صهرا لها (بحكم زواجه بابنة زوجها «فيبسانيا») فانه لم يهتم بذلك السلوك ، فقد كان سعيدا مع فيبسانيا ٠ ولقد عاش تيبيريوس حتى سن الثامنة والسبعين ، ولكنه لم يحصل على السعادة فى تلك السنين الطويلة الا لمدة اثنى عشر عاما فقط ٠ وهى المـدة التى قضـاها مع فيبسانيا ، التى أنجبت له ابنا أسماه دروسوس ، على اسم آخيه الحبيب ٠

وفى سن الخامسة والعشرين حصل تيبيريوس على قيادته الأولى ٠ ولم تكن تلك القيـادة عسـكرية بقـدر ماكانت دبلوماسية ٠ وكانت مهمته هى أن يستعيد الشعار الرومانى الذى كانت احدى الكتائب قد فقدته فى معركة مع الجيش الفارسى ٠

وكان الجيش الفارسى قد فاجأ تلك الكتيبة بهجوم كاسح ٠

ولقد قتل كل رجال تلك الكتيبة • ولكن ذلك لم يكن هو أسوأ مافى الأمر • وانما كانت الكارثة الكبرى هى فقد الشعار • وكانت شعارات الكتائب عبارة عن نسور برونزية مرفوعة على أعمدة • وكانت تقوم بنفس دور البيارق والأعلام فى الحروب • وكان الدفاع عن النسر حتى آخر نفس هو الواجب المقدس الذى لامحيص عنه • وكان من المحتم أن يدافع عنه حامله حتى الموت ، فاذا سقط قتيلا ، فانه كان على أقرب جندى منه أن يتناول النسر ويرفعه ويدافع عنه بحياته ، وهكذا •

وكانت الكتيبة التى تخسر نسرها تخسر شرفها العسكرى وتتعرض لأقسى العقوبات وقد كان بعض الضباط يستغلون مشاعر الولاء للنسر والفداء لمن أجله ، فيبادرون ــ اذا بدت بوادر الهزيمة بين رجالهم ــ بقذف النسر بين صفوف العدو، فكان جنودهم يندفعون فى استبسال جنونى ويشقون الصفوف نحوه وينتصرون على العدو •

وكانت مهمة تيبيريوس تستمد أهميتها من أن شعار النسر كان قد فقد من ثلاثين سنة • ولكن المهمة لم تكن صعبة • فقد كان هناك فى روما ثائر فارسى كان قد قاد ثورة ضد ملك فارس ، وعندما فشلت الثورة لجأ الى روما •

ولقد طلب الفارسيون رأس الثائر الهارب (تيريداتس) فى مقابل النسر • وأبرم تيبيريوس الصفقة معهم ، وحصل على شعار النسر وأرسل به ألى روما •

ثم راح يبحث عن مجد آخر •• مجد عسكرى فى هذه

المرة · واتجه نحو البرابرة (١) على الحدود ·

فالى الشمال من ايطاليا كانت توجد غابات الغال الأوربية والغابات الجرمانية وغابات البانونيين · وكانت كلها تحفل بقبائل ملتحية تقاتل للقتال فقط · وكان رجال تلك القبائل يلتزمون بالزوجة الواحدة · ولم يكونوا يقيمون فى مدن أو قرى · وانما كان كل منهم يقيم بأسرته حيث يشاء · وكانوا يواجهون تكتيك الحرب النظامية الرومانى بتكتيك حرب العصابات · فكانوا يظهرون فجأة ويختفون فجأة وكانوا يهددون الجيوش الرومانية دائما ·

وفى عام ١٢ ق·م· طلب تيبريوس لنفسه قيادة القوات المقاتلة فى بانونيا وأجيب الى طلبه · وأصبح جنرالا ·

وكانت بانونيا تقع على الشاطىء الشرقى من البحر الادرياتيكى ، حيث توجد يوغسلافيا وبلغاريا الآن ·

وكانت الحرب ضد البانونيين شبيهة بالحرب ضد الدخان· فقد كانوا يختفون فى الغابات ، وفجأة كانت تنطلق سهامهم فتجرح وتقتل بغير أن يستطيع أحد أن يحدد مصدرها أو يصل الى رماتها ·

وللتغلب على البانونيين كان على القائد أن يكون حذرا وجريئا فى آن واحد وأن يكون مرنا وسريعا فى اصدار قراراته · وكان تيبريوس كذلك · فقد كان فى غاية الحذر من الكمائن والفخاخ ، ولكنه كان سريعا ومبادرا فى مطاردة

---

(١) هذه الكلمة التى تستخدم فى العربية للتعبير عن الهمج والمتوحشين ، رومانية الأصل والمعنى · وكان الرومان يطلقونها على الشعوب الهمجية ومعناها هو « الملتحين » ·

العدو الهارب · وكان يكبح جماح قواته حتى تحين اللحظة المناسبة فيضرب بقوة وعلى أوسع نطاق · وبذلك وطد مكانته كقائد عظيم · كما أنه استطاع ـ للمرة الوحيدة فى حياته أن يكون محبوبا · فقد كان يعيش عيشة متواضعة بين جنوده ويشاركهم فى متاعبهم ولايميز نفسه عنهم بمظاهر الرفاهية التى كان يتمسك بها القواد الآخرون · وكان ضباطه يألفونه ويمازحونه · حتى لقد أطلق عليه بعض الضباط الصغار لقب بيبيريوس ومعناه «شارب النبيذ النقى ـ الغير ممزوج بماء ـ » · وكان تيبيريوس يتقبل مثل ذلك المزاح بروح مرحة · وكان أيضا من القادة القلائل الذين تنبهوا الى أهمية علاج الجنود من المرض أو الجراح ، فكان يصحب معه الاطباء والأدوية أينما ذهب وكان يأمر بحمل المصابين على المحفات أو فى العربات ·

وكان تيبيريوس ينتقل على ظهور الخيل ويأبى أن يستخدم المحفة التى يحملها العبيد ، وكان يأكل كالجنود وهو جالس · بينما كان نبلاء الرومان يأكلون وهم مستلقون على بطونهم ·

وعاد الى روما منتصرا ومكللا بالغار ومعه العديد من الأسرى والكثير من الغنائم · وفى روما استقبله الشعب بالهتاف وبالورود وبالاحتفالات والاستعراضات · وكانت تلك هى قمة ماحصل عليه من سعادة · لانه بدأ بعدها يفقد عناصر سعادته واحدا بعد الآخر ·

فقد كان شقيقه دروسوس يقود جيشا فى ألمانيا (وكان قد أنجب طفلين) ولكنه كان مبتدئا ،وكان لايجيد فن القيادة· وكان كل مانجح فيه هو أن يجعل نهر الالب فاصلا بينه وبين

أعدائه . ثم وقع من فوق الحصان فأصيب بنزيف داخلى قضى عليه .

ولقـد وصل النبأ الى تيبريوس بسرعة أتاحت له أن يلحق به وهو فى الاحتضار (قطع فى الطريق اليه أربعمائة ميل فى أربعة أيام . وهى سرعة قياسية) وعاد تيبريوس بجثة أخيه الى روما . وهكذا يكون قد فقد واحدا من اثنين لم يكن يحب غيرهما .. أخيه وزوجته .. ولم تتأخر الضربة الثانية عن الوقوع .

وكان تيبريوس لم ينس بعد مرارة طلاق والدته القهرى وزواجها الاجبارى من أغسطس . وتشاء الأقدار أن تجرعه نفس الكأس .

فقد مات أجريبا وأصـدر أغسطس أوامـره بأن يطلق تيبريوس فيبسانيا (وكانت حاملا) وأن يتزوج من جوليا بعد انتهاء سنة الحداد . ولم يكن أغسطس يعنى بذلك أن يرشح تيبريوس للعرش ، فقد كان لايحبه ، وانما كان قصده هو أن تنجب جوليا من تيبريوس وريثا للعرش . وقد أنجبت فيبسانيا (بعد طـلاقها) دروسوس ، وكان هو الابن الوحيد لتيبريوس .

وكان لدى جوليا فى ذلك الوقت خمسة أطفال ، وكانوا كلهم من أجريبا ــ فعلا ــ . فقد كانت جـوليا حريصة على ألا تحمل من أحد من عشاقها الكثيرين حتى لاينكشف عبثها . ولذا فانها كانت على حد قولها «لاتسمح لأحد بركوب السفينة قبل أن يتم شحن عنابرها» . وبالنسبة لعاطفة جوليا نحـو تيبريوس فانه كان من المعروف أنها كانت تحبه . وأكثر من ذلك أنه قيل أنه كان واحدا من عشاقها .

الهرب من جوليا

كانت جوليا فتاة مرحة ، وكان كل همها فى الحياة هو المتعة · ولكنهـا حاولت فى الســنتين الأوليين من زواجها بتبيريوس أن تكون زوجة طيبة · صحيح أن تيبيريوس كان بطبيعته الجادة لايستطيع أن يحقق لها ماتصبو اليه من مرح، ولكنه على أى حال كان شابا يتفجر بالحيوية ، وقادرا على اشـباع حاجاتهـا · ولذا فانهـا لم تتردد فى مصاحبته الى دالماسيا ــ حيث كان يحارب القبائل ــ ولقد عاشت معه هناك فى الخيمة القرمزية التى كانت تخصص لزوجات القادة · كما أنها أنجبت له طفلا · ولكن الطفل مات ·

وطبيعى أن المعيشة فى تلك الخيمة (مع ماكان يحيط بها من وسائل الخدمة والترفيه) لم تكن تشبه حياة روما الرغدة· فقد كانت جوليا تحب الضحك والحركة · وكانت فى أوج شـبابها وحيويتها (فى الســابعة والعشرين من عمرها) ، وكانت تحب الحرية · ومع أنهـا كانت قـد ترملت مرتين

وكانت قد أنجبت خمسة أطفال ، فانها لم تكن مستعدة بعد للاستقرار ٠

وكانت جوليا مثقفة وجميلة ٠ وفى روما ، كانت المرأة (فى مثل عراقة محتدها) تستطيع أن تحصل على الكثير من الحرية ٠ ولذا فانها كانت ترتدى ثيابا حريرية شفافة ، تبدى معالم جسدها وتكشف عن مفاتنها ، وكانت تميل الى مصاحبة الشبان الأقوياء ، ولكن كان من بين أصدقائها بعض الكهول مثل الشاعر الداعر «أوفيد» ، وكانت تتناول الطعام مع الرجال ٠ وتلك كانت فى روما فضيحة بالنسبة لامرأة فى مركزها ، لأن الولائم الرومانية كانت تخصص للرجال فقط ، وكانت النساء اللائى يظهرن فى تلك الحفلات هن الخادمات والراقصات وجوارى المتعة وما أشبه ٠ ولكن جوليا لم تكن تبالى بالفضيحة ٠

ولعل مارسيللس كان قادرا على السيطرة على جوليا ٠ ولكنه مات ٠ أما أجريبا فانه كان يؤثر أن يتجنب مواجهة المتاعب ، فكان يغمض عينيه عن أفاعيل جوليا ٠ وفى مقابل ذلك فانها كانت تتجنب أن تحمل من غيره وكان أطفالها الخمسة شبيهين بأجريبا فعلا ٠ ولقد اكتفى أجريبا بذلك ولم يفكر فى تطليقها ٠

وكانت جوليا تأمل أن يحقق لها تيبيريوس ماتصبو اليه من متعة وانطلاق ولكنه كان ينظر بعين السخط الى تحررها وعبثها ٠ كما أنها تعرضت لسخط حماتها (ليفيا) أيضا ، بعد أن عادت مع تيبيريوس من دالماسيا ٠

وكانت ليفيا هى أقوى امرأة فى روما ٠ وعندما تبينت

خيانات جوليا لابنها فانها لم تتردد فى الوقوف منهـا موقف العداء ٠

وعندما تتعارك النساء فان الامبراطوريات تضطرب ٠ فقد كانت جوليا تستطيع أن تختلف مع مارسيللس أو آجريبا بغير مخاطر تذكر ٠ لأن كلا من طرفى الخلاف كان موضع حب الامبراطور ٠ أما مع ليفيا فان الأمر كان مختلفا لأنها كانت حبيبة الامبراطور المفضلة وزوجته ، وأهم من ذلك أنها كانت شريكته فى الحكم ، حتى لقد اعترف بها السناتو ومنحها لقب أوغسطا ٠ وكان أغسطس يعتمد عليها تماما فى ادارة شئون الحكم ، ويطلب مشـورتها فى كل مشـاكله ٠ وكانت ليفيا جديرة بكل تلك الثقة ، لأنها كانت عاقلة وحكيمة سواء فى ادارة شئون الحكم أو ادارة بيتها ٠

ولقد أوضحت ليفيا لاحدى صديقاتها كيف استطاعت أن تحتفظ بحب زوجها لها فقالت «اننى أحافظ على سمعتى وعلى طهارتى ، وأفعـل كل مايطلبه زوجى وأنا مبتسمة ، ولا أتدخـل فى شـئونه ، ولا أتطفل عليه ، وأخيرا فاننى أتظاهر دائما بأنى لاأعرف شـيئا عن مغـامراته العاطفية والجنسية» ٠ وكانت جـوليا من الجانب الآخـر هى معبودة الجماهير فى روما ، بحكم مرحها وجمالها ٠

ومن حول كل من المرأتين تكون حزب قوى ٠ فكان حزب ليفيا وتيبريوس مكونا من العائلات العـريقة التى تتمسك بالشرف والتقاليد ٠ أما حزب جـوليا فانه كان مكونا من الشباب المتحرر ٠

وكان الامبراطور يعيش حائرا بين المرأتين ٠ فعندما

ليفيا تكون معه فانه كان يستطيع أن يتفجر غضبا للفضيلة ، وأن يصدر الأوامر والقوانين ضد الفجور والزنا وأن يمنع انفاق الأموال على الملاهى • أما عندما تكون جوليا معه فانه كان لايرى أحدا سواها •

وفي روما انطلقت جوليا فى عبثها بغير حدود أو قيود ، بينما كان تيبريوس يحترق غضبا • ولكنه كان غير مستقر فى روما بسبب المعارك المتابعة التى كان عليه أن يقودها • ولذا فانه كان دائم السفر من روما واليها •

وذات يوم التقى بزوجته السابقةفيبسانا فى منزل أحد أصدقائه • ولم يستطع يومها أن يتمالك أعصابه فظل ينظر اليها باهتا • ومع أن أغسطس كان قد بادر بتزويجها من سناتور ثرى (اسينيوس جالوس) فور طلاقها من تيبريوس ، فان تيبريوس لم يبال بحقيقة كونها زوجة لغيره ، وراح يتابعها بعينيه وبوجدانه حتى آثار انتباه ولغط الحاضرين • وعندما خرجت فيبسانيا خرج وراءها وظل يتابعها حتى دخلت بيتها • وعلم أغسطس بتلك الفضيحة فكان سخطه عظيما • ولذا فانه استدعى تيبريوس وصب عليه جام غضبه ثم أصدر اليه أمرا قاطعا بألا يرى فيبسانيا بعد ذلك •

أما عن جوليا فان أحدا لم يجرؤ على ابلاغ الامبراطور بفضائحها وبأنها طالما شوهدت وهى تترنح من السكر فى شوارع روما •

وكان باستطاعة تيبريوس أن يتخلص منجوليا ومتاعبها بسهولة لو أنه استخدم حقه القانونى • فقد كان أغسطس ــ بنصيحة من ليفيا ــ قد أصدر قانونا هو «القانون اليولياني

ضد الزنا» وكان القانون يقضى بمعـاقبة الزوجة الزانية بعقوبات شديدة ومعاقبة عشيقها أيضا • وكان القانون ينص على أن يقوم الزوج بتوجيه الاتهام ، فاذا لم يفعل ذلك فى خلال ستين يوما من وقوع الجريمة فان واجب الاتهام كان ينتقل الى والد الزوجة • فاذالم يقم والد الزوجة بذلك فانه كان من حق أى رومانى أن يقدم القضية الى العدالة •

ولكن تيبيريوس لم يفكر فى الافادة من ذلك القـانون لنفس السبب الذى حال بين الآخرين وبين التصدى لجـوليا بالاتهام • فقد كانت ابنة الامبراطور ، وكان أبناؤها (من أجريبا) هم المرشحون الطبيعيون لوراثة العرش • ولم يجد تيبيريوس أمامه من مهرب سوى الحروب • وفى ألمانيا استطاع أن يتم ماكان قد بدأه شقيقه دروسوس وأن يخضع القبائل ويهزمها الواحدة بعد الأخرى • ولقد حصل تيبيريوس بذلك على كل ماكان يصبوا اليه من مجد • أما السعادة فانها كانت قد ضاعت منه الى الأبد •

واذا كانت الحرب قد أعطت لتيبيريوس الفرصة للبعد عن جوليا وفضائحها ، فانها قد أعطت جوليا فرصة أكبر للعبث ولاثارة المزيد من الفضـائح • ولم تكن مثـل هـذه الفضائح لتخفى عن أعين الناس • لأنه كان لايوجد مكان فى روما يخلو من الناس ، ولا كان يوجد قصر يخلو من العبيد والجوارى • وكان ذلك المنـاخ من أخصب مايكون لمروجى الفضائح ومطلقى الاشاعات •

ويوما بعد يوم راحت أعصاب تيبيريوس تنهار • فلم يكف جوليا ماكانت تلوث به سـمعته وشرفه من فضـائح ،

وانما راحت تستغل حب أبيها لها وتعمل على تخريب عواطفه نحو تيبريوس ، الذى كان قد أعلن لها غير مرة سخطه واستنكاره لسلوكها المشين . ولم يكن التأثير فى عواطف أغسطس صعبا من هذه الناحية . فانه لم يحب تيبريوس قط ، وان كان قد قدر مواهبه كرجل سياسة ورجل حرب . ومع أنه لم يحرمه مما يستحقه من التكريم لانتصاراته والتقدير لمواهبه ، كما أنه زوجه بابنته وأخيرا منحه رتبة التريبيون (وهى رتبة تعطى صاحبها امتيازات جمة وحصانة من القانون لمدة سنة ، أما بالنسبة لتيبريوس فقد زادت تلك المدة الى ٥ سنوات) ، مع كل ذلك فان أغسطس كان مستعدا للتأثر بما راحت جوليا تصبه فى أذنه من سموم ضد تيبريوس .

ولم يستطع تيبريوس أن يتحمل أكثر من ذلك ورأى أنه لو ترك روما والحرب وذهب الى مكان هادىء بعيد فقد يريحه ذلك من متاعبه . وفى نفس الوقت فان جوليا سوف تنطلق فى عبثها الى مدى لايمكن أن يخفى على أغسطس وبذلك يقع أغسطس نفسه تحت طائلة القانون اليونانى للزنا فيضطر للتصرف ضد ابنته . وأقلع تيبريوس الى جزيرة رودس .

وثار أغسطس غضبا لأن تيبريوس ترك مناصبه وغادر روما بغير اذنه . وأصدر أمرا قاطعا «حسنا فليذهب حيث يشاء ، ولكن يمنع من العودة الى روما» .

فى المنفى

وفى السادسة والثلاثين من عمره ، كان تيبيريوس قد بدأ اقامته فى رودس · وكان رجلا قد سيطرت عليه المرارة والغضب كما أنه كان رجلا قوى الارادة ، مكتمل الحيوية ، وكان على تمام الصلاحية لحكم امبراطورية ، أو ادارة ولاية أو قيادة جيش ، ولكن كل تلك القدرات صارت الآن حبيسة فى صدره وصارت منفية فى رودس ·

وكانت الجزيرة اغريقية فى كل شىء ·· فى شعبها وفى أزيائها وفى لغتها ، كما أنها كانت جزءا من الامبراطورية الرومانية · ولقد راقت الجزيرة لتيبيريوس ووجد فيها ماكان ينشده من هدوء ومن فنون · وبامتيازات التريبيون عاش تيبيريوس فى الجزيرة منعما مكرما · ومع أنه كان من حقه أن يكون له حرسه الخاص وأن يعامل كأكبر رأس فى الجزيرة، فانه لم يأبه بتلك المظاهر وراح يعيش فى يسر وتواضع مع أهل الجزيرة وعلمائها وفنانيها . وكان يخاطب العامة كأنه واحد منهم وكان يتقبل مفاكهاتهم ويبادلهم آمثالها · وكان

هناك أستاذ فى الأدب الاغريقى اسـمه ديوجين (وهـو غير ديوجين الفيلسوف المشهور الذى كان يبحث دائما عن الرجل الفاضل) ، وذات يوم ذهب تيبيريوس الى منزل ديوجين لكى يتسامر معه • وبكل بساطة أرسل ديوجين اليه خادمه ليقول «عد بعد سبعة أيام» • وبغير ضغينة مضى تيبيريوس عائدا • وبعد سبعة أيام عاد واستقبله ديوجين • على أن تيبيريوس لم يكن يقبل مثل هذه المعاملة من غير أهل العلم والأدب • فقد تجرأ أحد الأغنياء على رفض مقابلته فما كان منه الا أن عاد الى قصره وارتدى زى التريبيون ثم عاد الى الرجـل وقبض عليه وأودعه السجن •

وذات يوم ذهب لزيارة المرضى فى المستشفى • ولكى يرضـيه القـائمون على الادارة فانهم أجبروا المرضى على تنظيف المستشفى ثم أوقفوهم فى صف واحد لاستقباله • فما كان منه الا أن أوسع الموظفين لوما وتأنيبا ثم راح يعتـذر للمرضى واحـدا بعد الآخـر • وبذلك كسب قلوب شعب الجزيرة •

وفى قصره كان يجتمع أهـل الأدب والفن والفلسـفة ويتناقشون ويعرضون أفكارهم وانتاجهم • وكان تيبيريوس يشترك معهم ويرحب بهم ويستضيفهم • وكانت لديه فى القصر مكتبة حافلة بمجلدات العلم والأدب ، كما أنها كانت تشتمل على عدد ضخم من كتب الجنس والأدب المكشوف التى كان يستوردها من جميع أنحاء الامبراطورية • على أن جزءا كبيرا من اهتمامه كان موجها الى علم التنجيم ، فكان يدرس الفلك بغرض التعرف على ماهو مخبوء له فى علم الغيب •

وبالاضافة الى هؤلاء كان حاملو الهدايا وطلاب الاحسان يأتون للقصر من كل مكان فى الجزيرة · وكذلك كان صيادو الشهرة · وكذلك كان المنحرفون · وكان أهل هذه الفئة الأخيرة مصدر ضيق لأغسطس فى روما ، لأنهم كانوا ـ بما يوفرونه من متع ـ يغنون الاثرياء عن الزواج، ولذا فان قوانينا صدرت فى روما لتحريم العزوبية ·

وعن تيبيريوس نفسه فانه راح يستمتع فى رودس بكل ألوان الجنس · وكان يبدأ يومه بقضاء وقت فى المكتبة ثم يتجول فى المدينة ثم يتناول غذاء خفيفا ، ثم يمضى وقتا فى الحمام · وحتى فى الحمام فانه كثيرا ماكان يستطيب الحوار مع منجم أو فيلسوف · ومن بعد ذلك فانه كان يتناول عشاء حافلا مع ضيوفه المختارين · وقد يختار أن يحاورهم فى الفلسفة وعلم النجوم أو يستمتع بالراقصات والموسيقى · ومن بعدها كان يتجه الى فراشه ومعه الرفيقة ـ أو الرفيق ـ المختار ، أو مع عدد منهم سويا ··

وقد يظن الكثيرون أن تلك الحياة كانت حياة سعيدة · والواقع هو أن تيبيريوس كان تعيسا لأنه كان يعيش بلا عمل وبلا هدف · وفى ذلك الوقت كان أغسطس قد بدأ يدخل فى الشيخوخة ، وكانت أسنانه قد راحت تتآكل ، وانتابه بعض العرج ، كما أنه كان يعانى من مرض الحصوة · وفى مثل هذه السن فان المرء ينتابه الشعور بأن عليه أن يبادر بانجاز رسالته وتحقيق أهدافه · ولذا فانه بدأ يفكر فى وراثة العرش ·

ولكن الحرب بين الفريقين النسائيين (ليفيا وأنتونيا ـ أرملة دروسوس ـ من ناحية ، وجوليا وعصبتها وأبنائها

من ناحية أخـرى) كانت تقض مضجعه · فقد كان هنـاك لوشيوش وجايوس (ابني جوليا)وكاناهما المرشحين الطبيعيين لوراثة العرش وكان كلاهما يبغض تيبيريوس كزوج أمه من ناحية وكمنافس خطير على العرش · ولقـد بدأت عصـبة جوليا ـ بالاضافة الى جهودهاالدائبة لتحطيم سمعة تيبيريوس تفكر في التخلص من تيبيريوس بالقتل · ولكن أغسطس لم يكن ليرضى عن ذلك ، وكان قد منح تيبيريوس حق الاقامة في رودس ، ولذا فان المتآمرون تراجعوا عن خطتهم ·

وانهمك أغسطس في ادارة شـئون الامبراطورية من تعيين وعزل (وعقاب) للحكام والموظفين ومن شن الحـروب وعقد الصلح والمحالفات ومن سن القوانين ومن ادارة شئون القضاء والأمن والمرافق · وحتى الديانة الاولمبية كان هو كاهنها الأكبر (بعد وفاة ليبيدوس الذى كان قد اكتفى بذلك المنصب بعد انتصار أكتيوم) ·

وعلى سبيل المثال فقد تصـدى أغسطس لعـلاج مشكلة كانت تؤرق الحكومة ، وكانت هى مشكلة تزايد عدد العبيد المحررين · فقد كان السادة يتخلصون من عبء اطعام وايواء الكهول والضعفاء منهم بتحريرهم · وتكون النتيجة هى أنهم كانوا ينشئون لأنفسهم بيوتا وأسرات حرة وبذلك صار الدم الرومانى مهددا بيوم تكون فيه الأغلبية للدم المختلط · وفى عهد أغسطس كان هناك مواطنون من نسل العبيد وكانت لهم كل حقوق وجنسية الرومانيين ، وكان منهم فارسيون وغاليون وألمان واغريق ومصريون وعـرب وزنوج · ولمقـاومة ذلك أصدر أغسطس قانونا يحرم على السادة أن يحرروا ـ مهما كان عدد من يملكون من العبيد ـ أكثر من مائة عبد ، أما من

كانوا يمتلكون أقل من مائة فكان العدد الذى يمكنهم تحريره هو ٢٥ فقط ٠

وماكاد ينتهى من علاج تلك المشكلة حتى وجد نفسه فى مشكلة تخصه شخصيا كما تخص أيضا الأخلاق العامة ٠ فقد كانت عصبة جوليا قد مضت فى غيها بعيدا ٠ ونشر شاعرها الداعر «أوفيد» ديوانه «فنون الحب» وهو ديوان يحفل بالأدب المكشوف ويدعو علنا الى الفسق والفجور ، وقد أثار هـذا الديوان ثائرة أنصار الفضيلة ٠٠ ليس لأن روما كانت مدينة الفضائل ، فقد كان من حق الرجل الرومانى (زوجا كان أم أعزبا) أن يمارس كل مايشـتهيه من فنـون الجنس مع أى امرأة ٠ ولكن العكس كان صحيحا ــ فى نظر القانون عموما، وفى نظر القانون اليوليانى على الأخص ــ بالنسبة للمرأة الرومانية ٠ وكان مفروضا عليها أن تحـافظ على طهارتها وعفافها والا تعرضت لأشد العقوبات ٠ وكانت جوليا قد انطلقت مع شهواتها الى الحـد الذى لم تعـد معـه تفكر فى التستر ٠ اذ كانت تجوب شوارع روما مع صـديقاتها وكن يعرضن أنفسهن على عابرى السبيل كالبغايا ، وكن يمارسن مع عابرى السبيل أحط أنواع العلاقات الجنسية فى ركن من شارع أو تحت ظلال البواكى ٠ وأخيرا فانهن كن يذهبن الى حى البغايا ويزاحمن البغايا فى عملهن ٠

وبديهى أن أغسطس قد علم ببعض ذلك ان لم يكن كله، ولكنه تظاهر بأنه يجهل تلك المخازى ٠

ولكن ليفيا تمكنت أخيرا من ايقاظه من غفوته ٠ فقد جمعت كل الأدلة اللازمة ثم وضعتها تحت نظره مبـاشرة ٠

وكانت الأدلة من القـوة والوضـوح بحيث جعلته يفيق من غفوته ويشتعل بالغضب من أجـل اسـمه وكرامته اللذين مرغتهما جوليا فى الأوحال · وكان عليه فوق ذلك أن يطيع القانون الذى كان هو الذى شرعه وآصـدره ضـد الزنا · وطبقا لذلك القـانون فانه كان ملزما بتوجيه الاتهـام الى جوليا ، لأن زوجها ـ تيبيريوس ـ كان غائبا فى رودس · ثم أن ليفيا نبهته بلباقة الى أنه لو تهرب من القيام بهذا الواجب فان هناك من سيتصدى للقيام به ـ طبقا للقانون ـ ·

واستدعى أغسطس جوليا ووجه اليها الاتهام بين سيل من الشتائم وصب عليها جام غضبه ، ثم آدانها ، ثم أصدر الحكم عليها · ومع أن القانون كان ينص على اعدام الزوجة الخائنة فان قلب أغسطس لم يطاوعه على اعدام جوليا ، ولذا فانه حكم عليها بالنفى فى جزيرة جرداء نائية هى جزيرة بانداتاريا ·

وكانت فرحة تيبيريوس بهذا النبأ طاغية · ولكن تلك الفرحة لم تكن تامة لأن أغسطس ظل مصرا على عدم الاذن له بالعودة الى روما · وأدهى من ذلك أن عـددا من الأنبـاء السيئة جـاء يترى · فقد كانت تمـاثيل تيبيريوس (التى أقيمت تكريما لانتصاراته العسـكرية) تتعرض للعـدوان والتحطيم والتلطيخ بالأقذار ، على أيدى آنصـار جـوليا · ولعل أبناء جوليا الثلاثة كانوا من وراء تلك الاعتداءات · وكان أحدهم «بوستموس» قد تعرض لغضب آغسطس فنفاه بدوره · أما شقيقاه (لوشيوس وجايوس) فقد كانا فى قمة السطوة ، لأن آغسطس كان قد بلغ الشيخوخة والضعف حدا جعلهما يترقبان آن يعتلى أحدهما العرش قريبا · وفى حالة

وفاة أغسطس واعتلاء آحد الشقيقين العرش فان مصير تيبيريوس المحتوم كان هو الاعدام ·

وفي ظل ذلك التهديد الرهيب عاش تيبيريوس في رودس وقد ازداد هما وانطوى على نفسه آكثر وآكثر · ولم يكن له هم وقتئذ الا استشارة النجوم · وقد كان الرومان يؤمنون بأن النجوم تعبر عن المستقبل وعن المجهول · ولعل ذلك يرجع الى أنهم لم يكونوا يؤمنون حقا بالآلهة الاولمبية (التى ورثوها عن الاغريق) ·

ولم يكن القدماء بالجهل العلمى الذى يتصوره الكثيرون منا · فقد كانوا قو توصلوا الى الكثير من الحقائق والقوانين العلمية · ومنها على سبيل المثال كروية الأرض وقانون الجاذبية · فقد قال سترابو «ان الأرض ليست منبسطة ، وانما هى محدبة وسطحها كسطح الكرة · كما آن كل الأجسام من فوقها ترتبط بمركزها» · وفى هذه العبارة نجد ماقاله جاليليو ونيوتن معا ·

وكان أغسطس نفسه من آشد المؤمنين بعلوم التنبؤ بالغيب · فقد كان يؤمن بأن هطول مطر خفيف عند بدء أى رحلة يمثل فألا حسنا · وكان يتوقع المشاكل والمتاعب ان هو أخطأ قلبس فردة الحذاء اليمنى فى القدم اليسرى أو العكس ، وكان يردد دائما أن حلما معينا قد أنقذ حياته · فقد حلم ذات ليلة (فى خلال معركة فيليبى) بأن خيمته مهددة بالوقوع فى يد العدو ، فاستيقظ من نومه وغادرها على الفور · وبعد قليل وقعت الخيمة فى يد العدو فعلا ·

أما بالنسبة لتيبيريوس فكانت النجوم هى ملاذه الأول

والأحلام هى الملاذ الثانى والعلامات هى الملاذ الثالث • وكان تيبيريوس يذكر أن واحدا من أجداده «كلوديوس العادل» كان يقود معركة بحرية حين أنبأه رجاله بأن الكتاكيت المقدسة ترفض أن تتناول طعامها (وتلك كانت علامة سيئة) فما كان منه الا أن قال «ان كانت ترفض الأكل فلتشرب من البحر» ثم ألقى بالكتاكيت فى البحر •• وخسر كلوديوس المعركة وخسر معها أسطوله بأكمله •

وقد راح تيبيريوس يستعين بالمنجمين ويطلب منهم أن ينبئوه بمصيره • وكان سبيله الى التحقق من كفاءة المنجم هو أن يصحبه فى رحلة الى شاطىء البحر • ومن فوق صخرة عالية كان يختبر علم المنجم بأسئلة فنية ـ فقد كان هو نفسه متضلعا فى علم النجوم ـ فاذا جاءت اجابات المنجم على مرامه فانه كان يعود به ويكرمه ويجعله من حاشيته ، أما اذا حدث العكس فانه كان يشير الى عبد (كان يصحبه كحارس) اشارة خفية فيدفع بالمنجم من فوق الصخرة فيهوى من حالق ويتحطم على صخور الشاطىء •

وذات ليلة صحب تيبيريوس منجما يدعى ثراثيليس الى الصخرة وطلب منه أن يستنبىء النجوم عن الأخبار • وكان ثراثيليس من الذكاء بحيث أنه تظاهر بالرعب الشديد وراح يصيح بأن النجوم تنبئه بأن حياته هو تتعرض لخطر شديد فى تلك اللحظة • وضحك تيبيريوس وأشار للعبد بالابتعاد

ثم طلب من ثراثيليس آن يسآل النجوم عن المزيد من الأخبار .
وسواء أكان ثراثيليس على علم آكيد بما قاله آو آنها كانت
رمية موفقة فانه قال لتيبيريوس «ياللحظ السعيد ان هناك
سفينة قادمة ومعها أخبار طيبة جدا لك» ..

وللتو ظهرت السـفينة فى الأفق ودخلت الميناء ومعها
الرسالة التى كان تيبيريوس يتلهف عليها . وكانت آمرا من
أغسطس بعودة تيبيريوس الى روما ..

تيبريوس ·· وليا للعهد

وفى روما ، شعر تيبريوس بأنه عاد للحياة من جديد · فقد كان قريبا من قمة السلطة ، وكانت عدوته جوليا تعيش فى منفاها البعيد · ومع أن الامبراطور كان قد استقبله بتجهم فان ذلك لم يؤثر فى موقعه ولا فى امتيازاته ·

وكان تيبريوس قد عاد الى روما فى السنة الثانية الميلادية · وفى نفس السنة وصلت أنباء خطيرة من مارسيليا، التى كان لوشيوس (ابن جوليا ، وأحد المرشحين للعرش) قد ذهب اليها فى مهمة رسمية · وكان أول تلك الأنباء هو أن لوشيوس مريض ، ثم جاء نبأ ثان بأن مرضه خطير ، ثم نبأ ثالث بوفاته · وبذلك يكون القدر قد خطا بتيبريوس خطوة للأمام نحو العرش · ومع أن الاشاعات قد اتهمت تيبريوس بتسميم لوشيوس الا أنه لم يبال بها · أما الامبراطور فقد خفف من تجهمه نحوه لأن المتاعب كانت قد بدأت تظهر فى بعض الولايات وكان الامبراطور يحتاج الى قائد كفء ·

وقد بدأ الامبراطور بارسال الابن الباقى لجوليا

(جايوس) لقمع فتنة فى منطقة ليشيا ، وذلك على أمل أن يتدرب جايوس على الحرب وتكتمل صلاحيته لمنصب الامبراطور . ومع أن تلك الفتنة كانت ضئيلة وكانت الحرب التى قادها جايوس يومها حربا صغيرة فانه ليست هناك حرب يمكن أن تعد حربا صغيرة بالنسبة للرجل الذى يموت فيها. وقد مات جايوس فى تلك الحرب .

واستسلم أغسطس للقدر . فقد قامر لكى يولى لوشيوس أو جايوس العهد ولكن القدر ذهب بحياتيهما ولم يعد أمام أغسطس من خيار .. فليكن تيبريوس اذن هو ولى العهد ، مادامت الآلهة قد أصرت على ذلك . وفتح العالم ذراعيه لتيبريوس ، وأعطاه أغسطس جيوشا ضخمة ومهام عديدة . وكان أولها هو انجاز أهداف الحملة التى مات فيها شقيقه دروسوس فى آلمانيا . ونجح تيبريوس فى اخضاع الالمان . ومن هناك ذهب الى بانونيا ثم الى دالماشيا وقضى على المتاعب فيها . وعادت شوارع روما تضج من جديد بالهتاف للقائد المنتصر تيبريوس . وعادت تماثيله الى قواعدها وراح المثالون ينحتون له تماثيل جديدة .

ومع كل ذلك فان طبيعته الانطوائية لم تتغير ، وظل يعيش ويتحدث بنفس ذلك البطء الذى كان يثقل على الناس . وكان تعليق أغسطس على ذلك هو «يالروما المسكينة التى سوف يحكمها هذا الانسان الكئيب» .

وفى عام ٤ بعد الميلاد تبنى أغسطس تيبريوس رسميا. وبذلك أصبح هو ولى العهد الشرعى .

وكانت روما تعج فى ذلك الوقت بالأقاويل عن فضائح

جديدة لأسرة الامبراطور · ولم تكن جوليا الجميلة العابثة هى مدار الأقاويل فى هذه المرة · فقد كانت المسكينة تعيش فى منفاها وهى محرومة تماما من الرجال ومن النبيذ معا ، وكانت محرومة حتى من الطعام الجيد · فتلك كانت هى العقوبة التى أصر أغسطس على تنفيذها عليها فى المنفى ·

وكانت صاحبة الفضائح الجديدة هى جوليا الصغيرة ·· حفيدة الامبراطور وابنة جوليا المنفية · وكانت الصغيرة صورة طبق الأصل من أمها فى كل شيء ·

وراحت جوليا الصغيرة تمارس كل ماكانت تمارسه آمها من عبث ، بل وأكثر منه · وكانت العصبة التى تصاحبها هى نفس عصبة أمها · وكانت من بينها الشاعر آوفيد صاحب ديوان «فنون الحب» · واذا كان آوفيد قد كتب تلك الفنون على الورق فان جوليا الصغيرة كانت هى صاحبة القدح المعلى فى تطبيقها على نفسها · فقد قال آوفيد «اشرب كأس اللذة حتى آخر قطرة» · ولم تكن تلك الحكمة الداعرة بالشيء الغريب على مجتمع الرجال · ولكن آوفيد أصاب روما بصدمة عنيفة حين وجه نفس النصيحة وأعطى نفس الحق للنساء · والى بنات روما وجه أوفيد نصيحة أدهى وأضل «لاتبخلى بشيء من مفاتنك على عشاقك ، ولاتأسى اذا خانوك· فما الذى تخسرينه · ان مفاتنك سوف تبقى على حالها حتى لو استمتع بها ألف ألف رجل» ·

وفى هذه المرة لم يتردد الامبراطور فى صب جام غضبه على جوليا الصغيرة وعصبتها ــ خصوصا بعد آن أطلعه تيبيريوس على فضائحها بكل تفاصيلها ــ وقضى آغسطس على

جوليا الصغيرة بالنفى ـ ومع أنها كانت حاملا ، وكانت تعرف من هو والد جنينها ، ومع أن هذا الشاب أعلن اعترافه بأبوة الجنين وأعلن استعداده للزواج بها ، فان أغسطس رفض قبول ذلك ، وأمر بنفيه هو الآخر . وعندما ولدت جوليا انتزع الحراس منها الوليد ـ بأمر أغسطس ـ ثم ألقوا به فى العراء حتى مات .

والى المنفى ذهب أيضا أوفيد . ولم يكن ديوانه هو سبب نفيه . لأنه كان قد نشر ذلك الديوان منذ عشر سنوات . وانما كانت التهمة هى أنه خالف القانون اليوليانى سواء بارتكابه الزنا مع جوليا أو بعدم التبليغ عن عبثها مع الآخرين . وأخيرا فان أغسطس كان قد ضاق ذرعا بكل مايمت الى الفجور بسبب . وكان منفى أوفيد هو مدينة تومى التى تقع على مصب الدانوب (على البحر الاسود) . وهناك عاش أوفيد وهو محروم من نبيذ روما المعتق ومن ملاهيها وملاذها . ومن هناك راحت تترى استرحاماته وتوسلاته الى الامبراطور بأن يعفو عنه . ومع أن تلك المدينة كانت غنية بمناظرها الطبيعية ، وكان أجريبا نفسه قد أعجب بها وقضى فيها ستة أشهر ، فان أوفيد كان يعيش وهو مذعور من غارات القبائل ، كما أنه كان يفتقد أيضا مغانى روما ، وكان لايجد فى تلك المدينة من يفهم أشعاره أو يعجب بها . ولقد درس أوفيد لغة القوم وكتب بعض أشعاره بها وحصل على بعض الاعجاب والتقدير . ولكن ذلك لم يعوضه فى شىء عن روما . ولقد ظل يتابع كتابة رسائل التوسل والاسترحام حتى مات فى منفاه .

وكان أغسطس قد أصبح ـ فى السبعين من عمره ـ كهلا

محطما بعد أن فقد شبابه وصحته وفقد أحفاده كلهم ، سواء بالموت أو النفى • وكان حين يتحدث عن ابنته وحفيدته جوليا وحفيده بوستموس يشير اليهم بقوله «قروحى الثلاثة الباقية» •

ولكن متاعبه لم تكن قد انتهت • فقد اشتعلت ألمانيا بالثورات من جديد • وفى هذه المرة بعث بقائد يدعى فاروس وزوده بثلاث من أقوى كتائبه (١٨٠٠٠ رجل) • واستطاع قائد ألمانى يدعى هيرمان (أرمينيوس) أن يضلل فاروس وأن يحيط بجيشه فى غابة توتبورج (١) وأن يقضى على الجيش بأكمله بحيث لم يفلت أحد منه من الموت • ولقد قتل معظم الجنود فى المعركة ، أما الباقون منهم فانهم ماتوا بعد عذاب رهيب فى احتفالات النصر • وكان فاروس من العقل بحيث أنه انتحر • فقد كان الانتحار أرحم بكثير مما كان يعده له أرمينيوس من فنون العذاب • كما أن أغسطس كان بدوره سوف يذيقه مثل ذلك لو أنه جرؤ على العودة اليه •

وأصابت النكبة أغسطس بما يشبه الجنون فراح يدور فى القصر وهو يصيح «فاروس •• فاروس •• أعد الى كتائبى» • وقيل أيضا انه كان يضرب رأسه فى الحيط من فرط الفجيعة • وكانت خسارة الكتائب الثلاث خسارة كبيرة فعلا لأن كل ماكانت تملكه روما من كتائب الليجيون كان هو ٢٨ كتيبة • وكان الدفاع عن الحدود فى ألمانيا بكتائب أخرى يعنى اضعاف بعض الحدود الأخرى • كما أن انتصار أرمينيوس كان جديرا بتشجيع المستعمرات وقبائل الحدود

---

(١) عام ٩ ق٠م

على الثــورة ٠ وكان من أســوأ مظاهر النكبة أيضا ، فقد الكتائب الثــلاث لشــعارات النسر الرومانى ، وتلك كانت فضيحة ومهانة للامبراطورية ٠

ولجأ أغسطس الى القائد الكفء لضرب الألمان واعــادة الأمن والتوازن الى الامبراطورية ٠٠ الى تيبيريوس ٠ وتصدى تيبيريوس للمهمة بكفاءته المعهودة فجند كتائب جديدة ودربها ثم قادها فى حملة ضــارية ، واســتطاع أن يعاقب القبائل الألمانية أشــد عقــاب ٠ ولقــد اعترف أغسطس بأنه لولا تيبيريوس لما أمكن انقاذ الامبراطورية وقتها ٠

وباطمئنان أغسطس الى سلامة الامبراطورية والى كفاءة امبراطور المستقبل لم يبق لديه سوى عمل واحد ، كان عليه أن ينجزه قبل أن يموت ، وكان ذلك العمــل هــو تســجيل أعماله ٠

واستدعى أغسطس أحد عبيده الكتبة ، وراح يملى عليه مذكراته وأعماله الكبرى ٠ وبعد أن تم التسجيل راح سائر الكتبة ينقلون منه نسخا عديدة ٠ وأرسلت النسخ الى سائر أنحاء الامبراطورية حيث جــرى نقشها على المعــابد وعلى الأعمدة الرومانية ٠ ولم تبق من تلك النسخ سوى نسختان، واحدة باللاتينية وأخرى بالاغريقية ٠

وفى تلك المذكرات قال أغسطس «فى التاسعة عشر من عمرى أنشأت جيشا من مالى الخاص ٠ وبهذا الجيش أنقذت الناس من الظلمة والطغاة ٠ ولقد بعثت الى المنفى بالذين قتلوا والدى (كان يعنى والده بالتبنى يوليوس قيصر) ٠ ولقد أسرت ستمائة سفينة حربية كبرى ، وعددا لايحصى من

السفن الصغيرة • ولقد انتصرت بنفسى على أعدائى مرتين (كان يعنى معركتى فيليبى وآكتيوم) ولقد تبرعت لخزانة الدولة بـ ١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سيسترس من مالى الخاص • وبنيت دار السناتو ، وبنيت بجوارها معبدا للآلهة ميزفا ، وأضفت الكثير من المبانى الى ملعب ماكسيموس ومعابد جوبيتر وكويرينوس وجونو • وبنيت معابدا لمجمع الآلهة وللأم القوية • ولقد أقمت ثلاث حفلات ضخمة للمصارعات باسمى وخمس حفلات بأسماء أبنائى وأبناء اخوتى ، وفى كل حفلة تصارع ١٠٠٠٠ رجل حتى الموت • وأقمت استعراضين لألعاب القوى باسمى واستعراضا ثالثا باسم حفيدى • كما أقمت عروضا لصيد الوحوش فى الملاعب ستا وعشرين مرة ، وفى كل مرة كان يتم صيد وقتل ٣٥٠٠ وحش • كما أقمت معركة بحرية فى نهر التيبر ، حيث تقاتل أسطولان ، بلغ عدد سفنهما ٣٠ سفينة ، وعدد مقاتليها ٣٠٠٠ • ولقد طهرت البحار من القراصنة • وضاعفت موارد الامبراطورية • وأضفت مصر الى أملاكها • واستعدت الكثير من شعارات النسر الرومانى التى كان غيرى من القادة قد فقدوها • ولقد كرمنى السناتو بلقب أغسطس وكانت أعمدة معابدى يكللها الغار (١) • ولقد تم تسجيل هذه المذكرات (٢) وعمرى ٧٧ سنة» •

---

(١) اسم الغار باللاتينية (والاغريقية) هو « لوريل » ومنه اشتق اسم شهادة اتمام الدراسة الثانوية (بكالوريا) ومعناها هو « باقة الغار » •

(٢) النسخة الوحيدة التى بقيت من هذه المذكرات وجدت منقوشة على حجر بمدينة أنقرة • وقد حرص أغسطس على الا يشير الى كليوباترا فى هذه المذكرات ، وانما اكتفى بالقول بأنه ضم مصر الى الامبراطورية • ويرجع ذلك الى رغبته فى اسدال الستار على اسم ابنها قيصرون ، الذى كا نهو الابن الوحيد لقيصر ، والذى قتل بأمر أغسطس بعد انتحار كليوباترا عام ٣٠ ق•م •
المعرب

وبذلك أنهى أغسطس آخر أعماله ، وراح يستعد لاستقبال النهاية · وفى عام ١٤ بعد الميلاد ظهرت بعض العلامات ·· فقد أصاب البرق أحد تماثيله فأحرق حرف «ق» من كلمة «قيصر» · وكان أغسطس يفزع من البرق طوال حياته وكان يهرب منه ويختبىء فى القبو وكان يحمل تميمة لتحميه منه · وكان حرف القاف فى اللغة الأتروسكانية يعنى اله ، وكان يعنى فى اللغة اللاتينية رقم ١٠٠ ، وكان معنى ذلك فى نظر أغسطس هو أنه سوف يموت ويصبح الها فى خلال ١٠٠ يوم · ومن باب التأكيد ظهرت علامة أخرى· فقد حلق نسر ضخم من فوق رأسه وهو فى ميدان مارس ، ثم طار النسر الى مبنى البانثيون ثم استقر فوق اسم «أجريبا» المنقوش هناك ، وكانت مخالبه مستقرة على حرف «أ» وهو أيضا أول حرف فى اسم أغسطس · وفى السماء ظهر مذنب ملتهب ، وكان شكله ينبىء عن قرب وفاة أحد العظماء ·

ولم يبق أمام أغسطس من عمل يؤديه سوى أن يموت ·

وهناك على الشاطىء المقابل لبركان فيزوف توجد جزيرة كابرى الجميلة بشاطئها المقوس ذى المياه الزرقاء وتلالها الخضراء وسمائها الصافية · ومثلما هى الآن مرتع الراحة والاستجمام فانها كانت كذلك منذ ألفى عام · وكان الذى اكتشف قيمتها السياحية هو أغسطس ·

وكان أغسطس يزور الجزيرة زيارة عابرة ، وكانت معه ليفيا ولقد أعجب الاثنان بها · ولكن شيئا حدث فجعله يتشبث بامتلاكها · فقد كان يقف بجوار شجرة جرداء ،

وفجأة ظهر الاخضرار على فروعها وأغصانها . وكان تلك علامة لم يتردد أغسطس فى الأخذ بها .. فآلا حسنا . وللتو اشترى الجزيرة من مدينة نابولى فى مقابل مدينة «اسشيا» .

ولقد قضى أغسطس مايقرب من أربعين سنة وهو ينام فى نفس سريره العادى فى قصر البالاتين . ولم يكن يسمح لنفسه الا بأجازات قليلة . وكان يقضى كل تلك الاجازات فى جزيرة كابرى . وكان يعتبرها خير مكان للكسل والاستجمام .

وبعد أن انتهى أغسطس من تسجيل مذكراته راح يقضى أجازته الأخيرة فى كابرى ، وكان تيبريوس فى صحبته . وهناك كان أغسطس يقضى وقته فى الاسترخاء والاستمتاع بالمناظر الطبيعية ثم تبادل الحديث مع من حوله وكان ثراثيليس (المنجم) هو سميره المفضل . فكان يلقى اليه بأبيات من الشعر الاغريقى ويسأله عن صاحبها وكان ثراثيليس يقرظ الشعر ولكنه كان يعجز عن معرفة الشاعر . فكان أغسطس يضحك فى استمتاع وارتياح ، لأنه كان هو صاحب تلك الأبيات .

وكان على تيبريوس أن يتوجه الى دالماسيا لاخماد فتنة قبائل «كلاب النار» . وعندما غادر تيبريوس كابرى صحبه أغسطس لعدة مراحل ، تكريما له وتأكيدا لحقيقة ولايته للعهد . وفى نابلى حضر الاثنان بعض الاحتفالات ثم غادروها الى بينيفنتو ، وهناك ودع أغسطس تيبريوس ، ثم سار عائدا الى كابرى . ولكنه لم يكد يصل الى مدينة نولا حتى سقط صريع المرض . وكان من غرائب الأقدار أن والده (الحقيقى)

كان قد مات فى تلك المدينة · وفى منزل والده (١) وفى حجرة نومه ، وفي نفس سريره ، رقـد آغسطس ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ·

وللتو أمرت ليفيا باخفاء الخبر عن الجميع ، وأحاطت الدار بالحراس ومنعت الدخول والخـروج ، وأرسلت وراء تيبيريوس ليعود على عجل · وصـحيح آن تيبيريوس كان هو الوريث الشرعى لأغسطس وكان هو المرشـح الوحيـد لتولى العرش ، ولكن دعائم النظام الامبراطورى كانت لم تتثبت بعد وكان يخالطها الكثير من المفاهيم الجمهورية · ولذا فان خشـية ليفيـا من وثوب الطـامعين فى العـرش كان لهـا مايبررها ·

وعاد تيبيريوس فى آسرع وقت ودخل حجرة آغسطس وبقى فيها طويلا · ثم خرج ليعلن آن الامبراطور قد مات وأنه قد تبادل معه قبل موته حديثا طويلا وتلقى منه النصائح والتوجيهات وأنأغسطس آوصاه خيرا بالامبراطوريةوالشعب وأسلم اليه قيادتهما ·

ثم قام تيبيريوس بدفن آغسطس فى احتفال مهيب · وكان ذلك فى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم ١٩ أغسطس ١٤ ميلادية (وكان آغسطس هو الذى آطلق اســم يوليـوس قيصر على شـهر يوليو وأطلق اسـمه على شـهر أغسطس) ·

---

(١) هو جايوس اكتافيان · كان من الطبقة المتوسطة · وأصبح حاكما لمقدونيا · وتزج من ابنة أخت يوليوس فيصر ، وانجب منها جايوس أكتافيان (اغسطس) عام ٦٣ ق·م ·   المعرب ·

وبديهى أن ماحكاه تيبريوس عن حـديثه المتبادل مع أغسطس كان حفنة من الأكاذيب ، ولكن الشعب صدقها وكان ذلك هو المهم . ولم ير سـناتو كان يدعى نيومـيريكوس أتيكيوس ، بأسا من آن يسـهم فى لعبة الدعاية فراح يقسم بأنه رأى روح آغسطس وهى تصعد الى السماء . وللتو أصدر السناتو قرارا بالاعتراف بأن آغسطس قد آصبح الها . ولم يبطىء تيبريوس فى استغلال الفرصة فراح يبنى على الفور معبدا لعبادة أغسطس .

يوم في حياة الامبراطور

مع أن تيبيريوس كان فى السادسة والخمسين من عمره حين تولى العرش فانه كان فى أوج صحته . وكان مايزال محتفظا بصفاته الأصلية .. الصمت والانطواء والمشية البطيئة ورأسه منحن الى الأمام . ولكنه كان هو الامبراطور، وكان هو قمة السلطة ، ولم يكن فوقه أحد من البشر ، وكان يملك كل مايحلم به الرومانى من سلطة ومن ثراء ومن متعة .

ولكن كل ذلك كان قد جاء متأخرا فلم يعد للنبيذ ولا لمتع الجسد نفس طعمهما أيام الشباب . ومع فيبسانيا كان من الممكن أن يكون تيبيريوس امبراطورا سعيدا وأن ينجح بأكثر مما نجح أغسطس . أما فى حالته تلك ، فانه كان امبراطورا أقرب الى التعاسة منه الى السعادة وكانت واجباته الرسمية تثقل عليه . وبدأ يعانى من الضيق ومن الكره ، وأيضا من الخوف على عرشه وعلى حياته .

وكان يبدأ يومه بالاستيقاظ ثم يستقبل ضيوفه وهو فى

الفراش وكانوا مابين سناتو وسفير وملك . وفى حوالى الثامنة صباحا كان يتناول افطاره مع عدد آخر من الضيوف. وبعد الافطار كان يستقبل الزوار من الأقارب والنبلاءوالقادة والحكام . وابتداء من الظهر فانه كان عليه أن يحضر ويرأس احتفالات لا حصر لها مابين دينية أو رياضية أو اجتماعية أو سياسية . أما بعد الظهر فانه كان عليه أن يحضراجتماعات السناتو . فقد كانت مظاهر النظام الجمهورى مازالت باقية، وكان الامبراطور يعتبر سناتورا . وكان عليه أن يؤدى دوره فى السناتو بهذه الصفة . وكانت دار السناتو هى أيضا دار القضاء فكان عليه أن يحضر المحاكمات وأن يرأسها وأن يساهم فيها فى أحيان أخرى كمدافع أو كمدعى .

وعن دوره بصفته الكاهن الأكبر للديانة الأولمبية فانه كان عليه أن يؤديه بصفة مستمرة وكان عليه أن يدير شئون الكهنة والمعابد ، وكان عليه أن يقدم القرابين بنفسه فى مناسبات كثيرة . وفى الحقيقة فان أمثال تيبيريوس من الطغاة لايؤمنون فى العادة بأى دين (والا لما طغوا وبغوا) وانما هم كانوا يستخدمون صفاتهم الدينية لكى يقنعوا الشعوب بالخضوع لسلطانهم . وكذلك كان تيبيريوس .

وابتداء من أواخر النهار فان وقت تيبيريوس كان يخصص للمتعة ، كالمصارعات الدموية أو حفلات الرقص والغناء . ولم يكن تيبيريوس يميل الى اقامة حفلات المصارعات كثيرا لأنها كانت تكلفه الكثير من النفقات .

وفى المساء كان يبدأ حفل العشاء وكان تيبيريوس ـ كعادة الرومان ـ يرقد على بطنه ويظل يأكل حتى يمتلىء ،

ثم كان ينقلب على جنبه اعلانا عن انتهاء العشاء • وطبيعى أنه كان يتناول العشاء مع الضيوف أيضا ، ولكن معظمهم كان من شعراء الاغريق أو المنجمين •

وهكذا كانت تسير حياة تيبيريوس على وتيرة رسمية مملة • وكان هو يكره تلك الرتابة فى المعيشة ويفضل عليها أن يقود جيشا أو يسن قانونا أو يتبادل الأشعار وأخبار النجوم مع سماره •

ولكى يأمن تيبيريوس على عرشه وحياته ، فانه بدأ يبحث عن الأشخاص الذين يحتمل أن يتطلعوا الى العرش ، ثم راح يقتلهم الواحد بعد الآخر • وبديهى أن بوستموس أجريبا (ابن جوليا وحفيد أغسطس) كان هدفه الأول • ومع أن الضابط الذى بعث به تيبيريوس ليقتل بوستموس كان مسلحا ، ومع أنه فاجأ بوستموس وهو أعزل الا أن الأخير قاومه مقاومة هائلة وأصابه بعدد من الجروح الشديدة قبل أن يسقط قتيلا •

ثم التفت تيبيريوس نحو جوليا نفسها فشدد عليها الحراسة ورفض أن يستجيب لتوسلاتها بالعفو عنها • وفى غيبة كل ماكانت تصبو اليه من متع وطعام شهى ومعيشة رغدة ، وبعد أن ذوى حسنها ، تحطم قلبها وماتت بحسرتها •

وكان السناتو يمثل تهديدا له وزنه • ليس لأنه كان يمكن أن ينزع منه العرش ولكن لأنه كان من الممكن أن يحاول التدخل فى شئون الحكم أو أن يؤيد أحد الطامعين فى العرش • وعين تيبيريوس قائدا ماهرا لقيادة الحرس البريتورى (الذى كان موزعا على مدن شبه الجزيرة الايطالية) ثم أمره

بتجميع الحرس فى روما • وكان شيوخ السناتو من الذكاء بحيث فهموا المعنى المقصـود من ذلك ، ومن ظهور الحـرس البريتورى فى اسـتعراضات متتابعة في شـوارع وميادين روما • ثم فاجأ تيبريوس السناتو بلعبة رائعة ، فوقف بعد أربعة أسابيع من موت إغسطس على المنصة ووجه خطابه الى الشيوخ قائلا «سادتى اننى أتوسل اليكم أن تعفونى من الحكم وأن تعيدوا النظام الجمهورى • اننى أضعف من أن أقوم بذلك العبء الهائل •• عبء حكم الامبراطورية • ولا أحد سـوى أغسطس المقدس كان يمكن له أن يحمل مثل ذلك العبء • دعونى أترك العرش وأكون مجرد سناتو بينكم» •

ولكن الشيوخ كانوا أذكى من أن يستجيبوا لتـوسلات تيبريوس المفتعلة وأن يتجاهلوا رغبته الحقيقية • ولذافانهم رفضـــوا أن يجيبـوه الى مطلبه وأصروا عـلى أن يبقى امبراطورا ••

وبقى تهديد آخر ، كان يقضى مضـجع الامبراطور ، وكان هو «جـرمانيكوس» • فقـد كان لتيبريوس ولدان ، أحدهما من صلبه وهو دروسوس الأصغر ، أما الثاني فكان ابنه بالتبنى وكان هو جرمانيكوس «ابن أخت أغسطس» • وكان تيبريوس قد تبناه بأمر أغسطس • وفى الوقت الذى كان فيه دروسـوس مايزال فتى أقـرب الى البـلادة ، فان جرمانيكوس كان فى عنفوان شبابه وكان قائدا ممتازا • وكان يقود الجيوش فى ألمانيا وينتقل بها من نصر الى نصر • ومع أن جرمانيكوس كان جنديا مخلصا لامبراطوره ووالده بالتبنى تيبريوس الا أن الشك كان قائما فى احتمال أن يفكر هو أو يغريه أحد بالتطلع الى الاستيلاء على العرش •

ولقد جاءت أحداث زادت من قوة ذلك الاحتمال . فقد ثار الجند في بانونيا وراحوا يطلبون زيادة مرتباتهم ، واعادة من قضوا وقتا طويلا فى الخارج الى روما ، واعفاء الكهول من الجندية . وكان خطيب تلك الثورة هو ممثل سابق يدعى برسينيوس . ولقد استطاع برسينيوس أن يدفع بالجند الى التمرد على ضباطهم والى القيام لحسابهم الخاص بحملات سلب ونهب على القرى . ثم قام جندى يدعى فيبيولينس بتمثيل دور عجيب اذ راح يصرخ فى وجوه الضباط ويتهمهم بأنهم قتلوا شقيقه ظلما . وبذلك استطاع أن يهيج الوحدات على الضباط وكانت النتيجة هى أن تناول الجند ضباطهم بالضرب والاهانة ، ثم قبضوا عليهم وراحوا يديرون شئونهم بأنفسهم .

ولقد بادر تيبيريوس بارسال ابنه دروسوس ومعه قائده سيجانوس لاخماد تلك الفتنة وكان سيجانوس بطبيعة الحال هو القائد الفعلى . ولقد استطاع أن يخمد تلك الفتنة وأن يكشف عن كذبة فيبيولينس التى أهاج بها القوات .

وبعد أن تم اعدام برسينيوس وفيبيولينس هدأت الحال ، وعاد دروسوس وسيجانوس الى روما . ولكن أنباء التمرد كانت قد تسربت الى قوات جرمانيكوس فثارت بدورها. ولكن ثورتها اتخذت اتجاها خطيرا ، فقد راح الجنود الثائرون يغرون جرمانيكوس بأن يعلن نفسه امبراطورا وراحوا ينادونه بلقب «قيصر» . ومع أن ثورتهم كانت تهدف الى تحسين أحوالهم وكانت مطالبهم هى نفس مطالب قوات بانونيا الا أن طريقهم الى هذه المطالب لم يقتصر على مجرد

التمرد وانما هم آضافوا اليه محاولة ضم جرمانيكوس الى صفوفهم عن طريق اغرائه بالعرش ·

ولكن جرمانيكوس صمد فى مواجهتهم وحاول آن يقضى على تمردهم · وبدأ جرمانيكوس بترحيل أسرته لتكون بعيدة عن الخطر · وكان ابنه الطفل جايوس (الذى عرفه التاريخ بعد ذلك باسم كاليجولا) محبوبا من الجنود · ولذا فانهم لم يطيقوا فراقه · وراحوا يترامون على آقدام جرمانيكوس ويرجونه ألا يحرمهم من الطفل · واستجاب جرمانيكوس اليهم واستبقى الطفل معه · وبتلك الطريقة البسيطة خمدت الفتنة وعاد الجنود الى الطاعة والنظام · ولكى يشغلهم جرمانيكوس فانه عبر بهم نهر الراين وقادهم فى حملة منتصرة ضد الالمان ·

وفى روما كان تيبيريوس يتتبع تلك الأنباء بقلق من الفتنة أولا ثم بارتياح لانتهائها ، ثم بشكوك متزايدة ازاء جرمانيكوس ·

السلام الرومانى

وعلى يدى تيبيريوس بدأ عهد السلام الرومانى Pax Romana فقد كانت الجمهورية قد دفعت بكتائب الليجيون حتى غطت معظم حدود العالم المعروف وقتها . وكان يوليوس قيصر وأغسطس قد استأنفا الغزو حتى مناطق القبائل المتبربرة . كما أنهما أشعلا الكثير من الحروب الأهلية والمعارك الداخلية .

وقد وضع تيبيريوس نهاية لكل ذلك ، وأعلن أنه «لاغزو ولا توسع بعد اليوم» . ولم تكن أسباب ذلك القرار عسكرية . فقد كان تيبيريوس من الشجاعة ومن الدراية بفنون الحرب بحيث لم يكن يخشاها . وانما كانت أسبابه اقتصادية . فقد كان يريد لقوات الاحتلال الرومانى أن تستقر فى المستعمرات وأن تحمى عملية جباية الضرائب وتؤمنها . كما أن أى حروب جديدة كانت جديرة بأن تكلف الخزانة غاليا .

والواقع هو أن نظام تحصيل الجزية وجمع الضرائب كان نظاما يحتاج الى التفرغ لتنظيمه ومراقبته . وكان وصول

عشرة جنيهات فقط الى الخزانة العامة يتطلب تحصيل مائة على الأقل • وكانت التسعين الفاقدة تذهب الى جيوب القادة والحكام ومحصلى الضرائب . وكانوا يقهرون دافعى الضرائب عليها ويستخرجون منهم أضعاف الضرائب المقررة • ولم يكن يهمهم فى شيء أن يكون دافع الضرائب قادرا أو عاجزا عن دفع مايطلبونه منه • لأنه كان من الممكن فى حالة عجزه عن الدفع أن يتم تحصيل المبلغ عن طريق بيعه كعبد • ولم يكن تيبيريوس قادرا على أن يغير من هذا النظام الظالم ، وانما هو استطاع أن يخفف من وطأته قليلا • فقد كان التغيير المستمر للحكام والقادة ومحصلى الضرائب فى المستعمرات ، يدفعهم الى محاولة استنزاف أقصى قدر ممكن من شعوبها قبل أن يتركوا مناصبهم • وقد أوقف تيبيريوس ذلك ، ووفر الاستقرار للحكام والقادة ومرءوسيهم ، وأبطل نظام التغيير المستمر فى مناصبهم • وبذلك كان الحاكم الصالح يجد لديه الفرصة لتوفير الأمن والرخاء للبلد الذى يحكمه • أما الحاكم السيء فان استقراره فى منصبه كان يجعله يخفف من وطأة مظالمه ويتحول الى شخص سمين بليد •• وأضاف تيبيريوس الى ذلك حسنة أخرى فأوقف فرض أى ضرائب جديدة • ثم راح يحسن فى نظام تحصيل الضرائب الأصلية حتى راحت أكداس الذهب تتدفق على روما • ثم أنه كان بعد ذلك معتدلا فى الانفاق سواء على نفسه أو على مرافق الدولة • ومع أنه عاش مرفها كامبراطور الا أنه لم يكن سفيها من الناحية الاقتصادية ، وكان ينمى ثروته الخاصة ويتاجر بمهارة • وكانت النتيجة هى أنه ترك فى الخزانة العامة عند موته مايعادل ١٠٠ مليون دولار بينما كان كل ماتركه أغسطس فيها هو خمسة ملايين فقط •

ولم يكن المال فقط هو كل ماكان يرد من المستعمرات. فقد كانت هناك أيضا المحصولات والخضراوات . فكان القمح يجيىء من مصر ، وكانت الخضراوات تجىء من ألمانيـا وبلاد الغال ، وكانت البهارات تجىء من الشرق . وكانت أثمان تلك المحصولات والخضراوات غالية بحكم تكاليف نقلها الباهظة . ولم يرتح تيبيريوس الى ذلك ، فراح يشجع ملاك الأرض فى ايطاليا على زراعتها بالمحاصيل والخضراوات بعـد أن كانوا يأنفون من ذلك ويفضلون عليه تربية الضأن والماشية . وقد كافح تيبيريوس كثيرا فى سـبيل تحقيق هـدفه ، بالنصح وبالخطب وبالقوانين . ولكنه لم يستطع أن يحقق نجـاحا كبيرا . بل ان محاولاته كادت أن تنتهى بكارثة . فبمجرد أن أصدر قانونا يحتم على كل صاحب رأسمال أن يسـتثمر ماله فى الأرض الايطالية راح كل انسان يسحب أمواله من البنوك ويعلن افلاسه . حتى لقد اضطر تيبيريوس الى دعم الميزانية المنهارة بما يوازى مليون دولار من ماله الخاص ، ثم لم يعد الى المحاولة بعد ذلك .

وفى السـنوات الأولى من حكمـه حـاول أن يكون ديمقراطيا وأن يتجنب تدمير القيم الجمهورية فرفض اقتراحا للسناتو بتسمية أحد الشهور باسمه (كما حدث لشهرى يوليو وأغسطس) وكان تعليقه على الاقتراح هـو «وماذا سـوف تفعلون اذا بلغ عدد القياصرة ثلاثة عشر ؟..» ، ثم أبدى غضبه حين خاطبه أحد الشيوخ بلقب «السيد الجليل» .

ولكن ذلك لم يكن يعنى طبعا أنه لم يكن يتـابع وقاية عرشه بكل السبل بما فيها القتل .

وكان تيبيريوس يعرف أنه غير محبوب من الناس • فقد كانت طباعه الانطوائية المتجهمة لاتساعد على الحب • ومع أن التماثيل كانت تقام له فى كل مكان فانه كان يعرف أن مصدر ذلك كان هو التقاليد وليس الحب • ولم يكن المواطن الرومانى يعرف أين يقف من تيبيريوس • فقد كان الأخير يطعم ضيوفه بسخاء ذات يوم ثم كان يطعم ضيوفه فى اليوم التالى ببقايا مائدة الامس • وكانت تغلب عليه السماحة أحيانا (كما حدث حين رفض للسناتو اقتراحا بمحاكمة كل من يتحدث بسوء عنه) ، ولكنه فى أحيان أخرى كان يمعن فى القتل وسفك الدماء كما حدث عندما صاح أحد الغوغاء فى ذات جنازة ــ مخاطبا الميت ــ «أبلغ أغسطس بأن وصيته بتوزيع الهبات على أهل روما لم تنفذ» • وللتو أمر تيبيريوس بسحب الرجل من قدميه وبالقائه فى السجن • ثم حاكمه وحكم عليه بالموت وقال له «أبلغ أبى تلك الرسالة بنفسك» • ثم أمر باعدام الرجل خنقا على الفور •

وكان من ضمن واجبات الامبراطور أن يزور الولايات والمستعمرات ليفتش على القوات والموظفين ويجتلب صداقات شعوبها • ولقد حاول تيبيريوس كثيرا أن يؤدى تلك الزيارات ولكن مشاغل الحكم وتتابع المشاكل فى روما كانا يجبرانه على الغاء الزيارة بعد أن يكون قد قرر موعدها وجهز لها السفن والمطايا • ولذا فان الرومان راحوا يسخرون منه ويطلقون عليه اسم كاليبيديس وكان كاليبيديس ممثلا هزليا وكانت هزليته المفضلة هى التظاهر بالاستعداد للجرى ولكنه كان لايتحرك من مكانه •

ومع تتابع الأعباء على تيبيريوس فان اعتماده على قائده

سيجانوس راح يتزايد حتى أصبح سيجانوس هو عينيه وأذنيه ، ولم يعد تيبيريوس يثق بأحد غيره ·

ومع أن تيبيريوس كان شديد الحذر من كل من يحتمل أن يطمع فى العرش أو ينافسه فى السلطة وكان دائم المتابعة لأخبارهم ونواياهم فان منافسا جديدا ظهر فى شخص والدته ليفيا · فقد كانت هى التى سهلت له سبل الحصول على ولاية العهد ، وكانت هى التى دبرت له الأمور حتى استقر على العرش · كما أنها كانت قد تعودت على ممارسة شئون الحكم مع أغسطس · ولذا فانها راحت تتشبث بحقها فى مشاركة ابنها فى الحكم . وكان الواقفون على بابها أكثر من الواقفين على باب تيبيريوس · وكان أول منشور امبراطورى أصدره تيبيريوس يحمل توقيعه وتوقيعها معا · بل ان مجلس السناتو كان قد اقترح تسمية أحد الشهور على اسمها «ليفيوس» ولكن الاقتراح لم ينفذ بسبب رفض تيبيريوس لاقتراح مماثل باطلاق اسمه هو على أحد الشهور ، كما ذكرنا من قبل ·

وعلى أى الأحوال فان ليفيا كانت مصدر تعب وضيق لابنها ، ولكنها بطبيعة الحال لم تكن مصدر خطر على حياته وعرشه ·

ولقد ظهر عبد يدعى كليمنس (وكان عبدا لبوستموس) وجمع عددا من العبيد وقادهم فى ثورة كان يهدف منها الى قتل تيبيريوس ، انتقاما لسيده بوستموس · ولقد تم القضاء على كليمنس وثورته ، ولكن بعد جهد وخسائر كثيرة ·

ومن بعده راحت تدور مؤامرة لقتل تيبيريوس · وكان بطلها شابا قويا وساذجا من النبلاء ، يدعى ليبو · فقد راح

كل ساخط على تيبيريوس يوسوس فى أذن ليبو بأنه هو الأحق بالعرش وان كل ماعليه أن يفعله هو أن يقتل الامبراطور • وكانت تلك المؤامرة من السذاجة بحيث علم بها الامبراطور وعلم بها أهل روما • أما الوحيد الذى ظل يجهل أن نواياه قد انكشفت فكان هو ليبو نفسه • وكان تيبيريوس يستقبله وهو على غاية الحذر منه وكان لايجلس معه وحده أبدا ، وفى أغلب الأحيان كان دروسوس الأصغر يجلس معهما ويده على سيفه •

ولقد صبر تيبيريوس على ليبو أكثر من سنه • وكان فى خلالها يحاول الحصول على الأدلة اللازمة لادانته • ولكن كراهية الناس لتيبيريوس جعلتهم يتجنبون الشهادة ضد ليبو • ولكن تيبيريوس وجد السبيل للحصول على مايلزمه من شهود• فقد كان عبيد ليبو على علم بنواياه ، ولكن المشكلة كانت كامنة فى ان القانون كان يمنع الأخذ بشهادة العبد ضد سيده • وبكل بساطة أمر تيبيريوس بأن تشترى الدولة عبيد ليبو • وبعد عذاب رهيب نطق العبيد وشهدوا ضد ليبو وبادر الأخير بالانتحار • وكان ذلك مصدر حنق تيبيريوس الذى راح يصيح «لقد أفلت ليبو من يدى» • فقد كان قد أعد له من العذاب ألوانا مروعة ••

وعن تعذيب الشهود نقول أنه كان أمرا عاديا جدا • بمعنى أن القضاء الرومانى لم يكن يأخذ أبدا بصحة أقوال الشاهد الا بعد تعذيبه . للتأكد من صدق تلك الأقوال • وكان أفضل أنواع التعذيب هو خلع كل مفاصل الشاهد ، وبذلك كان يصبح عاجزا عن الانتحار وكان يظل حيا وقادرا على النطق • وعن القسم الذى كان يؤديه الشاهد فانه كان من

باب الشكليات فقط لأن عقيدة الرومانى فى الآلهة الأوليمبية كانت تتلخص فى :

١ ـ ان الآلهة ليسوا بأفضل منى ولكنهم أقوى فقط ٠

٢ ـ انه من الممكن رشوة الآلهة بالقرابين وأن العمل الصالح لايعنيهم ٠

٣ ـ ان الآلهة لاتهمها الأخلاق فى كثير أو قليل ٠

٤ ـ أنه من المحتمل ألا يكون لتلك الآلهة وجود على أى حال ٠

على أن تيبيريوس لم يخسر كل متعته بانتحار ليبو ، فقد كانت هناك أملاك ليبو الواسعة ٠ ولذا فان تيبيريوس أمر باستمرار المحاكمة ، وحصل من المحكمة على حكم بمصادرة تلك الأملاك ٠

وفى عام ١٧ بعد الميلاد أمر تيبيريوس جرمانيكوس بالعودة من ألمانيا الى روما ٠ وعاد جرمانيكوس واستقبل بالحفاوة والحفلات وراحت الجماهير تطوقه بالزهور والهتافات ٠ ولم يرتح تيبيريوس لذلك ٠

وانتهز تيبيريوس فرصة نشوب بعض المتاعب فى الشرق الأدنى فبادر بتكليف جرمانيكوس باخماد فتن القبائل هناك ، وأرسل معه قائدا كبيرا يدعى سينيوس بيزو ٠ وهناك مات جرمانيكوس ٠

وقد نقلت جثته الى روما ٠ وفى الطريق أقيمت له مئات الجنازات ثم دفن فى احتفال كبير ، تراسه تيبيريوس بنفسه ٠

ولم يسكت الشعب على تلك الميتة الفجائية المريبة ٠

وللتـو وجهت الاتهـامات الى بيزو وقبض عليـه وبـدأت محاكمته . وكما فعـل ليبو من قبـل ، انتحر بيزو ، ولكن انتحاره كان مريبا . فقد وجد مذبوحا وكان السيف ملقى بجواره !. وانطلقت الاشاعات لتتهم سيجانوس بذبح بيزو ، ولكن تيبيريوس لم يهتم ولم يفكر فى التحقيق مع سيجانوس، لأنـه (تيبيريوس) كان المتهم الأصـلى بقتـل بيزو وسـم جرمانيكوس .

وكما فعل مع ليبو ، استمر فى اجراءات محاكمة بيزو ، ثم أصدر حكمه بمصادرة أملاكه . وحتى اليوم فان الحقائق الخاصة بقضية بيزو وجرمانيكوس لم تظهر بعد .

ومن المهم هنا أن نشير الى أن الأدلة التى اتهم سيزو وأدين على أساسـها لم تكن تزيد على تماثيل سـحرية عليها اسـم جـرمانيكوس . فقـد كان الرومان يؤمنون بأن السـحر يقتل .

متاعب الحكم

ماتت فيبسانيا ، بعد ثلاثين سنةمن طلاقها من تيبيريوس • وبموتها فقد تيبيريوس آخر من كان يحبه ، ولم يبق له بعد ذلك سوى الكره ، فعاش به حتى آخر حياته ، وكان يكره حتى ابنه الوحيد (من فيبسانيا) دروسوس •

وفى افريقيا نشبت ثورة عارمة بقيادة ثائر اسمه تاكفارينوس • ولقد استطاع هذا الثائر أن يقضى مضجع الامبراطور • فقد كان يظهر ويوجه ضربات ساحقة الى القوات الرومانية ثم يختفى بين الجبال • كما أنه استطاع ذات مرة أن يوقع بقوة كبيرة فى كمين قرب نهر باجيدا • ولم تقتصر الكارثة يومها على مجرد هزيمة تلك القوة وانما ضاعف من وطأتها هروب جنودها فى ذعر مهين • وللتو أمر الامبراطور بجمع هؤلاء الهاربين فى صفوف ، ثم آمر بأن يجلد كل عاشر من الجنود حتى الموت •

وفى روما كانت توجد سيدة ثرية اسمها فولفيا • وقد وقعت تلك السيدة بين أيدى أربعة من النصابين اليهود ،

الذين أقنعوها باعتناق الدين اليهودى ثم أقنعوها بأن تتبرع بثروتها للهيكل فى أورشليم وتطوعوا بتوصيل تلك الهبة الكريمة الى الهيكل ٠ ولكنهم كانوا من الغباء بحيث انكشفت لعبتهم قبل أن يغادروا روما ، وأسرع زوج فولفيا بتقديم شكوى ضدهم الى الامبراطور ٠

وفى ذلك الوقت كانت توجد فى روما جالية يهودية كبيرة ٠ ولم يكن أفرادها من المواطنين الرومان ، ولكنهم لم يكونوا من العبيد ٠ ولذا فانهم استطاعوا أن يعيشوا فى رغد وأن يمارسوا فنون التجارة التى كانوا يجيدونها ٠

وتقدم سيجانوس باقتراح بمعاقبة اليهود على ماجناه النصابون الأربعة ٠ ولم يكن تيبيريوس (بصفته الكاهن الأكبر للديانة الأولمبية) راضيا عن الديانات الأخرى ، ولذا فانه لم يتردد فى الأخذ بنصيحة سيجانوس فأمر بتجنيد أربعة آلاف من اليهود ثم بعث بهم الى جزيرة ساردينيا حيث قضت عليهم الملاريا ، ثم نفى باقى الجالية من روما ٠

وكان تيبيريوس فى ذلك الوقت قد بلغ الستين من عمره ، وكان بصحة ممتازة ، ولكنه كان وحيدا بغير حب أصيل يؤنسه ويرقق من طباعه ٠ ولذا فانه راح يضيق بالعمل والواجبات الرسمية ٠ وكان يسلى نفسه بالتصدى لبعض المشاكل بالعلاج ٠ ومن ذلك أن المجرمين كانوا يحصلون على حصانة من العقاب ان هم احتموا ببعض المقدسات (مثل لمس تمثال مقدس أو الدخول فى محراب معبد) ٠ وقد درس تيبيريوس القوانين الصادرة بهذا الشأن عبر خمسة قرون واستطاع أن يضع القوانين التى تحرم المجرمين من حقوق الحصانة ٠

وكان قانون «الأبوة» من بين القوانين التى أصــدرها أغسطس لحماية كيان الأسرة الرومانية النبيلة · وكان هذا القانون يحتم الزواج والانجاب على النبلاء وكان لايعترف بالأبناء غير الشرعيين · وقد ألغى تيبيريوس ذلك القانون ، لأنه كان قانونا غير واقعى ، وكان معظم أبناء الأسرة الكبيرة من أبناء الجوارى · ثم وجه تيبيريوس التفاتة بعد ذلك نحو «قانون الخيانة» وكان ذلك القــانون مطاطا بحيث يســمح بتوجيه تهمة الخيانة ، ليس فقط نحو من يخون الدولة أو الامبراطور فعلا ، وانما أيضا نحو من يسخر منهما أو يتفكه عليهما · وكانت خطورة هذا القانون وغيره كامنة فى أن نظام القضاء الرومانى كان يســمح لأى مواطن بأن يوجــه الاتهام وبأن يحصل فى مقابل ذلك على مكافآت كبيرة · ومن هنا راحت الاتهامات تترى على رءوس المواطنين وصــارت الوشاية والتجسس والنميمة من أمــراض المجتمع الرومانى الوبائية · وحاول تيبيريوس أن يعالج ذلك بتقرير عقوبات شديدة على كل من يوجه اتهاما كاذبا أو ملفقا · ولكن ذلك لم يخفف من تلك الأوبئــة لأن المجتمع الرومــانى كان قــد استشرى فيه الطمع والفساد ·

ضاق تيبيريوس ذرعا بذلك الحال ، وراح يبحث عن المتعة ويعيش بالليــل أكثر ممــا يعيش بالنهــار · وكانت متعته العقلية تدور حول أحاديث المنجمين أمثال ثراثيليس، وبعض المناقشات فى الأدب الاغريقى · ولكن متعته الكبرى كانت فى الجنس · وكان المجتمع الرومانى يتسامح فى هذه الناحية كثيرا بالنسبة للرجال · وكان للرجل الرومانى الحق فى أن يمارس الجنس مع البغايا والجوارى كيف يشاء · وحتى

رذيلة الجنسية المثلية كانت تعد شيئا عاديا وكان كل من يوليوس قيصر وأغسطس منهما بها ·

ولذا فان تيبريوس انغمس فى المتع الجنسية بغير حدود ·

أما عن ابنه دروسوس فانه لم يكن مصدر راحة له · فقد كان بليدا لايميل الى الدراسة وكانت هوايته الكبرى هى مشاهدة مناظر القتل فى الملاعب أو ساحات الاعدام · فاذا أعوزته حفلات الملاعب أو مناسبات الاعدام فانه كان يشبع هوايته الدموية بالصيد وقتل الحيوانات ·

وقد تزوج من فتاة جميلة تدعى ليفيلا وأنجب منها توأمين (وكانت ليفيلا أخت جرمانيكوس) · ولم تكن ليفيلا مخلصة لدروسوس · وكان لها عشيق وكان عشيقها هو سيجانوس ··

ومع أن تيبريوس لم يحب دروسوس فانه كان يرى فيه الوريث الوحيد والطبيعى للعرش · ولذانه فانه صدم صدمة كبرى حين مات دروسوس بعد مرض قصير · وكانت النتيجة هى أنه انطوى على نفسه انطواء تاما وأسلم معظم أعباء الحكم الى سيجانوس · وفى الحقيقة فان دروسوس لم يمت بالمرض وانما هو مات بالسم · وكان قاتله هو سيجانوس ، بالاشتراك مع ليفيلا ·

سيجانوس يتآمر

كان سيجانوس أنموذجا للرجل الطموح المعدوم الضمير وكان هـدفه المحـدد هو جمع أقصى قدر من السـلطة فى قبضته · وقد حقق من ذلك الكثير عن طريق استئثاره بثقة تيبيريوس · وكانت خطوته التـالية هى وراثة العـرش · ويصفه المؤرخ تاسيتوس فيقول «انه كان رجلا متين البنيان، جريئا وطموحا الى أبعـد حـد · أما أمام النـاس فانه كان يتظاهر بالكرم والتواضع» · وكانت حياته كلها عبارة عن خطوات ومغامرات محسوبة فى سبيل مطامعه · وحتى علاقته الاجرامية بليفيلا كانت محسوبة بدقة ·

فقد كان سيجانوس بغير أسرة وبغير أصدقاء · وكان وجود دروسوس يحول بينه وبين العرش · ولذا فانه اتجه الى تحقيق مطالب ثلاثة هى ازالة دروسوس من الوجود وانشاء أسرة والحصول على أصدقاء أقوياء · وكانت علاقته بليفيلا تهدف الى ذلك كله ·

وكانت بداية سيجانوس تتسم بالوصولية والنفعية ·

فعندما كان شابا يافعا لم يتردد فى ممارسة الجنسية المثلية مع واحد من أكبر أثرياء روما وأقواهم نفوذا ، وهو أبيشيوس ، الذى كان مريضا بالشذوذ . وكان أبيشيوس كريما متلافا . وكان يطعم أصدقاءه لونا من ابتكاره . ومازال هذا اللون يعيش على الموائد حتى اليوم ، وهو طبق الفواجراه (الكبد والقوانص المفرومة) وفى مقابل المتعة الجنسية ، قدم أبيشيوس سيجانوس الى جايوس ، أعز أصدقاء أغسطس . وعندما مات جايوس أسرع سيجانوس وجعل نفسه تابعا لتيبيريوس . وقد مات أبيشيوس منتحرا بعد أن أفلس تماما .

وكان تيبيريوس يطلب لنفسه تابعا يستطيع أن يأتمنه على الكثير من المهام التى كانت تثقل عليها . ولقد استطاع سيجانوس أن يكون هو ذلك التابع . وبذلك أصبح قائدا للحرس البريتورى . وصار هو المستشار الأوحد لتيبيريوس، وكان يجيد تبين رغبات تيبيريوس ويوافقه عليها وينفذها له . وكان يدأب على التجسس والبحث عن المعلومات . وبذلك استطاع أن يكتشف عددا من الاشاعات والمؤامرات وأن يبلغ تيبيريوس بها .

وأخيرا فانه استطاع أن يكسب ارتياح تيبيريوس اليه (ليس الحب ، فلم يكن عند تيبيريوس من الحب شيء) وكان هو رفيقه الدائم على المائدة . وكانت أسرة سيجانوس من العامة . ولكنه (عن طريق نفوذه وعلاقته بتيبيريوس) استطاع أن يرفع أفرادها الى مرتبة النبلاء وأن يعينهم فى أكبر المناصب .

ومع أن مطامع سيجانوس (لما هو أكثر من ذلك) لم تكن

بحاجة الى مايثيرها فانه من الثابت أن دروسوس كان يكرهه وأنه لطمه ذات يوم على وجهه • ويرى تاسيتوس أن تلك اللطمة كانت هى التى أوحت لسيجانوس بفكرة قتل دروسوس • ولكن دروسوس ـ على أى الأحوال ـ كان عقبة فى طريق سيجانوس • وكان لابد لسيجانوس من حليف يؤازره على التخلص من دروسوس • ووجد ذلك الحليف فى شخص ليفيلا •

ولعب سيجانوس لعبته معها بنجاح • فقد كان يعرف أنها (على جمالها المفرط) كانت فى طفولتها بليدة غير حسنة الملامح ، وانها لم تلق فى طفولتها الحب والاعجاب الذى تطلبه أى فتاة كما أن زواجها بدروسوس كان زواجا تقليديا ، وكان دروسوس من الأنانية والفساد بحيث لم يعطها الحب • ولذا فان سيجانوس استطاع أن يستولى عليها (قلبا وجسدا) بالغزل البارع المتتابع • وبعد أن أصبح عشيقها صار من السهل عليه أن يحرضها على التخلص من دروسوس ويلوح لها بمختلف المطامع ، ومنها أن تصبح زوجته وأن يصبح أحد توأميها هو الامبراطور بعد تيبيريوس ، على أن يكون سيجانوس هو الوصى على العرش طبعا ، كما أنها سوف تكون أم الامبراطور وزوجة الوصى على العرش فى آن واحد • ولم تكن ليفيلا بحاجة الى الكثير من الاقناع فقد كانت تحب سيجانوس وتكره دروسوس • كما أن سيجانوس كان فى ذلك الوقت قد أصبح هو الحاكم الفعلى للامبراطورية بعد أن انغمس تيبيريوس فى ملذاته وأسلم اليه كل مقاليد الحكم • ولم يعد أحد يستطيع أن يقابل الامبراطور الا عن طريق سيجانوس ، وحتى تلك المقابلات كادت أن تنقطع تماما بعد

أن احتكر سيجانوس لنفسه حق مقابلة زوار الامبراطور ٠

وأخيرا فقد كانت قيادته للحرس البريتورى تجعله أقوى رجل فى الامبراطورية ٠ لأن ذلك الحرس كان هو القوة المقاتلة الوحيدة لمسافة مئات الأميال من حول روما ، وكان رجاله من المنتقين بدقة ، وكانوا يحصلون على ثلاثة أضعاف المرتبات العادية ، وكان ولاؤهم كله لسيجانوس ٠

وكان سيجانوس بحكم كل تلك العوامل ، هو الحاكم الفعلى للامبراطورية وكان كبار الموظفين والحكام من أتباعه ٠ وعلى سبيل المثال فانه كان قد عين واحدا من أتباعه حاكما على فلسطين ٠ وقد خلد التاريخ اسم ذلك الحاكم لانه كان هو الذى استجاب الى طلب اليهود لصلب المسيح ، كما آنه كان هو الذى أطلق اسم تيبيريوس على أكبر بحيرات فلسطين ، التى مايزال اسمها حتى الآن هو بحيرة «طبرية» وكان اسم ذلك الحاكم هو «بونتيوس بيلات» ٠

وفى عام ٢٣ ميلادى كانت مؤامرة سيجانوس على حياة دروسوس قد اكتمل نضجها ٠ ومات دروسوس مسموما ٠ وكانت الجريمة شبه كاملة ، لأن سيجانوس كان قد دبرها بدقة ونفذها بصبر وهدوء ٠ وكان قد اشترى ذمة يوديموس (طبيب ليفيلا) وليجدوس (العبد الذى كان يدس لدروسوس السم فى الطعام) ٠ وكان السم الذى قتل دروسوس سما بطىء التأثير ، حتى يكون موته شبه طبيعى وينسب الى المرض ٠ وفى الواقع أن تاريخ الجريمة سوف يذكر لسيجانوس أنه كان من الصبر والمهارة بحيث استغرق أكثر من ثمان سنوات فى تدبير وتنفيذ مقتل دروسوس ٠ وكان الطبيب يوديموس هو الذي يدبر اللقاءات بين سيجانوس

وليفيلا • فقد كان يكفى أن تتظاهر بالمرض وتطلب الطبيب فكان يوديموس يمنع زيارتها ويقف حارسا على خلوتها بسيجانوس •

ولكى تتأكد ليفيلا من وفاء سيجانوس طلبت منه أن يطلق زوجته «أبيكاتا» ففعل • وبذلك لم يبق هناك حائل بين سيجانوس والعرش سوى تيبيريوس • ولكن تيبيريوس لم يكن عقبة قوية لأن موت دروسوس أجهز على البقية الباقية من تماسكه • ولم يكن من فرط الحزن ، لأن تيبيريوس لم يكن يحب ابنه ، ولكن ذلك كان من فرط خيبة الأمل فى أن يكون وريثه على العرش هو ذلك الابن • وبعد موت دروسوس أسلم تيبيريوس كل سلطات الحكم الى سيجانوس وصار امبراطورا بالاسم فقط ، وعاش للمتعة وللحقد وحدهما •

وكانت خطوة سيجانوس التالية هى الزواج من ليفيلا ، وبذلك يصبح هو من أفراد البيت الامبراطورى •

وطبقا للتقاليد كتب سيجانوس خطاب رجاء الى تيبيريوس طالبا اذنه للزواج من ليفيلا • وكانت المفاجأة ، فقد اعتذر تيبيريوس عن اجابة ذلك الطلب • وحتى اليوم فان أحدا لايعرف لماذا فعل تيبيريوس ذلك ، لأن سيجانوس كان رجله المفضل •• فلعلها كانت نوعا من الغيرة على زوجة ابنه الراحل •

وحين اطمأن سيجانوس الى أن اعتذار تيبيريوس لم يصدر عن أى شك فيه أو فى طبيعة موت دروسوس ، راح يفكر فى أنسب السبل لازاحة تيبيريوس بعيدا عن روما • وواتاه الحل • فقد كان تيبيريوس سعيدا في جزيرة رودس ••

فلنبحث له عن جزيرة أخرى يستمتع فيها • وكان سيجانوس يعلم أن تيبيريوس كان معجبا بجزيرة كابرى وكان يرى فيها مكانا مثاليا للراحة والاستجمام كما أنه يطمئن الى حصانتها ضد العدوان لأنه لم يكن لها سوى مدخل ضيق يصلح لرسو السفن •

وأوحى سيجانوس الى المنجمين بأن ينصحوا تيبيريوس بالسفر والاستجمام بعيدا عن روما ، ثم ابتكر مناسبات تدعو للسفر ، كافتتاح معبد فى كامبانيا وملعب فى جهة أخرى • وظل به حتى حط رحاله فى كابرى •

وحققت خطة سيجانوس (فى ابعادالامبراطور عن روما) نجاحا مثاليا • اذ لم يعد الأخير بعد ذلك قط الى روما •

وفى الطريق حدث حادثان كبيران • فقد كان تيبيريوس يتناول الطعام فى بيت واحد من أثرياء الريف ، وكان البيت يدعى «الكهف» لأنه كان مشيدا داخل كهف كبير • وأثناء تناول الطعام انهار الكهف على الضيوف • وللتو وثب سيجانوس وراح يحمى امبراطوره بجسده من الحجارة المتساقطة وأنقذ حياته • وبذلك كسب عرفان الامبراطور بالاضافة الى ثقته السابقة به •

أما الحادث الثانى فكان كارثة مهولة • فقد دعى الامبراطور الى حضور حفلة مصارعات فى ملعب مدينة فيدينا • وكان الملعب يتسع لخمسين ألف متفرج • وكان بناء الملعب واهنا • ولذا فانه انهار بالخمسين ألف أثناء الحفلة ولم ينج واحد من هذا العدد من القتل أو الاصابة بكسر أو بجراح • أما الامبراطور وصحبه فلم يصبهم أى أذى • ولقد

صرخ خليفته «كاليجولا» ··· الذى كان مجنونا وسفاحا رهيبا ، وراح ــ بعد ماتولى العرش ــ ينعى حظه السىء الذى حرمه من أن تحدث مثل هذه الكارثة الدموية فى عهده «لماذا يذهب تيبيريوس بكل تلك المتعة ؟؟ لماذا لاتحدث كوارث مثلها فى عهدى ؟» ·

وهكذا افتتح تيبيريوس بعض المعابد وشاهد بعض الاحتفالات وأمر بمساعدة ضحايا ملعب فيدينا ببعض المعونات الرمزية ثم استقر فى كابرى ·

جحيم المتعة فى كابرى

وفى كابرى بدأت صورة تيبيريوس فى التغير الى الأسوأ فصارت حالكة السواد رهيبة الملامح ٠

فقد كان قد بلغ السابعة والستين من عمره ٠ وكان قيصرا ٠ وكان بين يديه كل مايحقق له مايصبو اليه من متع ٠ وعندما شعر تيبيريوس بأن العمر يكاد آن يفلت من بين يديه راح يعب من المتعة بشراهة ٠ ولكنها لم تكن المتعة التى تتسم بالسعادة والصور الانسانية ، وانما كانت تنحصر فى عنصرين لا ثالث لهما هما الجنس والعدوان ٠ ومع أنه كان مايزال بصحة جيدة الا أن الشيخوخة كانت قد بدأت تترك بصماتها عليه فبدأ وزنه يهبط وراحت البقع تكسو وجهه ، حتى لقد راح الشعب يهمس بأنه انما هرب الى كابرى لكى يخفى وجهه المشوه عن الناس ٠ وصار امبراطورا على كابرى فقط ٠ أما مقاليد الحكم فكانت فى يد سيجانوس ٠ وركز تيبيريوس كل همته فى كابرى فبنى هناك اثنتى عشرة فيلا ٠ وكانت كل فيلا تنافس الأخريات فى البذخ والفخامة ٠

وبين تلك الفيلات (التى كانت على مسافات متباعدة وكانت تحيط بالجزيرة) راح تيبيريوس ينتقل بحاشيته ويغترف من المتع أقساها وأقصاها • وفى حدائق الفيلات انتشرت التماثيل والنافورات وأحواض الزهور • كما بنى أيضا عددا من الكهوف الصناعية وملأها بكل مطالب الترف والمتعة ، من أدوات ورياش ومخازن للخمر ومخادع للجنس ، ومن البحيرات الصناعية كانت تسبح فيها الأسماك المقدسة وتسير فى قنوات شفافة ملتوية • وهناك كان المنجمون يراقبون حركاتها ويبنون عليها تنبؤاتهم • وفى كهوف أخرى كانت هناك أحواض للسباحة • وفى تلك الأحواض كان تيبيريوس يستحم مع النساء والصبية المخصصين لمتعته •

ولم تكن كل المبانى التى أقامها مخصصة للترف وانما كان بعضهامخصصا لسجن وتعذيب أعدائه ،وماكان أكثرهم• وبعد أن انتهت اقامة كل المنشآت راح تيبيريوس يستدعى فلاسفة الاغريق والمنجمين والشعراء والفنانين ويوفر لهم حياة الأمراء • والى أبعد أجزاء الامبراطورية ذهب رسل الامبراطور وراحوا يبحثون عن الراقصين والراقصات وأهل الطرب ويبعثون بهم الى كابرى • ولكنهم كانوا يبحثون بالأكثر عن أهل فن معين هو فن تقديم العروض الجنسية بكل ألوانها الطبيعية والشاذة ، وكانوا يدعون «سبنتراى» •

ومع أن تيبيريوس كان يصرف بعض الوقت مع الفلاسفة والمنجمين والشعراء والزوار ، الا أن الجزء الأكبر من وقته كان مخصصا لمشاهدة عروض السبنتراى وبديهى أنه كان يشاهد تلك العروض مع فتياتهونسائه (وصبيانه) المفضلات وبذلك أصبحت فيلاته المشمسة معابد للرذيلة بكل معانيها •

وكانت التماثيل التى تكتظ بها الفيلات وحدائقها تماثيل للرذيلة والجنس المنحرف • وكانت مكتبة كل فيلا تكتظ بمخطوطات الجنس والأدب المكشوف • وكانت مخازن الفيلات مزدحمة ببراميل الخمر والنبيذ • وحتى الآلهة لم يفلتوا من عبث تيبيريوس فقد أمر المثالين بأن ينحتوا لهم تماثيل تصورهم فى صور جنسية شاذة •

وراح تيبيريوس يشرب كما لم يشرب من قبل ويغترف من الجنس كل مايستطيع ، وأحيانا كل ما لا يستطيع !!• وفى الأقبية كانت أبشع ضروب العذاب تنصب على سجنائه ، وكان تيبيريوس يستمتع بمناظر ذلك العذاب وكان يتفنن فى ابتكار أنواع جديدة منه • ولم تكن الزنزانات تخلو أبدا من النزلاء • فقد كانت أقل هفوة جديرة بأن تقذف بصاحبها كائنا من كان الى أقبية العذاب • وحتى أصدقاء تيبيريوس لم يكونوا بمأمن من ذلك المصير •

وذات يوم وقعت سمكة رائعة فى شبكة أحد الصيادين • فرأى المسكين أن يقدمها الى الامبراطور • ولكن الأخير كان يستمتع وهو ناعس بجلسة مريحة فى الحديقة • وكان من لهفة الصياد على الجائزة المنتظرة أنه أفزع الامبراطور حين تقدم اليه بالسمكة • وكان جزاؤه هو أمر من الامبراطور للحراس بأن يضربوا وجه الصياد بالسمكة الضخمة وأن يدعكوا وجهه بها • وأفلت الرجل بعد ذلك من أيديهم وقد تشوه وجهه وسالت دماؤه •

ولم يكن تيبيريوس يكتفى بالاستمتاع بالجنس مع الجوارى ومع السبايا ومع السبنترای ومع الصبية وانما كان يمارس الجنس مع الأطفال الذين كان بعضهم دون

الفطام • كما أنه راح يهتك أعراض السيدات الرومانيات من النبيلات أو من غير النبيلات • وقد بلغ من الحاحه فى مطاردة نبيلة شريفة هى مالونيا (التى كانت زوجة موظف كبير) أنها آثرت الانتحار على آن تخضع لرغباته •

وفى روما كان سيجانوس يقرض أصابعه غيظا • فقد كان قد استنفد جهدا كبيرا فى تدبير مقتل دروسوس • وكان السبيل الذى يوصله الى ثمار جريمته هو الزواج من ليفيلا• ولكن تيبيريوس رفض وظل يرفض باصرار آن يأذن له بذلك الزواج • وبعد رسائل وتوسلات ومحاولات عديدة يئس سيجانوس وراح يفكر فى تكتيك آخر يحقق به هدفه • ووجد مطلوبه فى اتجاهين أحدهما هو القضاء على كل وريث آخر محتمل للعرش وثانيهما هو تشديد قبضته على السلطة •

وأسعفته الظروف بما ساعده على تحقيق مطلبه فى توطيد سلطته على الحكم • فقد ثار أحد ضباط الحرس البريتورى فى جنوب ايطاليا وجند عددا ضخما من العبيد واقتحم بهم مدينة برنديزيوم وهناك أطلق السجناء والعبيد وضمهم الى جيشه ثم راح يجتاح المدن والقرى • ولحسن حظ سيجانوس فان أسطولا وصل الى برنديزيوم فجأة وللتو تم تجنيد بحارته وقادهم أحد ضباط سيجانوس فى هجوم مفاجىء ، سحق به الثورة • وفى نفس الوقت كانت القوات التى بعث بها سيجانوس للقضاء على ثورة تاكافرينوس فى افريقيا قد حققت بعض النجاح فى مهمتها •

واجتمع السناتو ووجه الشكر على تلك الانتصارات للامبراطور • ولكن الامبراطور لم يكن هناك وانما كان الذى تلقى الشكر والتقدير هو سيجانوس •

أما فى كابرى فكان الامبراطور لاينظر فى شئون الحكم الا فى القليل النادر (الذى كان يسمح به سيجانوس) • ومن بين المشاكل التى تصدى لعلاجها كانت مشكلة المآدب السفيهة التى كان يقيمها سناتو يدعى جالوس • ومع أن تلك المآدب كانت اقل فى الحجم والرذيلة من مآدب تيبيريوس ذاته • الا أن الأخير رأى أن ماهو مباح للامبراطور لايجوز أن يكون مباحا لسناتو ولذا فانه استدعى جالوس ووجه اليه اللوم ومقذع السباب ثم أصدر أمره بتحريم مثل هذه المآدب فى المستقبل ، مع استثناء واحد ، وهو أنه لابأس بأن يقيم جالوس مأدبة أخيرة بشرط أن يكون الامبراطور هو ضيف الشرف فيها ••

وبقيت أمام تيبيريوس مشكلة واحدة • وكانت تلك المشكلة هى والدته ليفيا • فقد كانت غاضبة لابعادها عن شئون الحكم وكانت قد بدأت تهدد بنشر بعض رسائل أغسطس التى كان قد قال فيها رأيه السىء فى تيبيريوس • وقد تسربت أخبار ليفيا والرسائل الى الشعب • حتى لقد كتب بعضهم أبياتا تقول «أيها الوحش البغيض • على اللعنة لو كان قد بقى أحد يحبك ، حتى والدتك نفسها» •

وكان عمر ليفيا قد تجاوز الثمانين • ولم يكن باستطاعتها أن تسافر الى كابرى • وعندما مرضت أرسلت اليه ليزورها ، فرفض فبعثت اليه ثانيا وثالثا برسائل الرجاء بأن يزورها ولكنه استمر على الرفض • وعندما ماتت رفض أن يأذن بدفنها • وترك جثتها تتعفن حتى يشبع رغبته فى اهانتها • وبعد لأى سمح بدفنها ولكنه رفض أن يحضر الجنازة • وكان الذى رأس الاحتفال بدفنها هو «كاليجولا» •

وكان كاليجولا فى الخامسة عشر من عمره ، وكان والده هو جرمانيكوس وكانت والدته هى أجريبينا (حفيدة أغسطس من ابنته جوليا) • وكانت أجريبينا ابنة لتيبريوس بالتبنى (عندما كان زوجا لوالدتها) • وكان جرمانيكوس واحدا ممن وضعهم سيجانوس فى قائمة منافسيه على العرش ، وكذلك كان أولاد جرمانيكوس كاليجولا ونيرو ودروسوس • ونلاحظ هنا أن اسم دروسوس يتكرر كثيرا فى الاسر الرومانية الكبيرة • وغيرهم ، كان كلوديوس (شقيق جرمانيكوس) • وكان الأخير هو أقربهم لوراثة العرش • لأنهم كانوا صبية صغارا ، أما كلوديوس فكان فى الثلاثين من عمره ولكنه كان يبدو غبيا وبليدا ، وكان يبتلع الاهانات بكل خضوع • وأما فى حقيقته فانه لم يكن غبيا (وان كانت فيه كل رذائل القسوة والانحراف بدوره) ، وانما هو كان يتظاهر بالبله لينجو بحياته • وفعلا استطاع أن ينجو من المذابح والاغتيالات فى عهد ثلاثة من الأباطرة بهذه الطريقة • وكذلك نجا من يد سيجانوس •

ووجه سيجانوس ضربته الأولى نحو أسرة جرمانيكوس فكلف واحدا من أتباعه «دوميتيوس» بأن يوجه الاتهام الى قريبة لأجريبينا ، اسمها بولشرا ، بأنها خانت زوجها وعملت على تسميمه • ثم عرض القضية على تيبريوس • ولم يتردد تيبريوس فى ادانة بولشرا والحكم عليها • وتماما كما توقع سيجانوس ثارت أجريبينا وتقدمت بالشكوى الى الامبراطور من الحكم . ولكنه رفض أن يستجيب اليها • وتبينت أجريبينا هدف المؤامرة • فقد كان معنى ادانة صديقتها وقريبتها بولشرا أنها سوف تكون هى الضحية التالية • ولذا فانها

راحت تبحث عن صديق قوى لكى تستند اليه . ووجدت هذا الصديق فى شخص أسينيوس جالوس . وبهذا الاختيار قضت أجريبينا على نفسها قضاء مبرما (فقد كان جالوس هو الرجل الذى تزوج فيبسانيا بعد طلاقها من تيبيريوس) . ومع أن فيبسانيا كانت قد ماتت فان حقد تيبيريوس على جالوس لم يخمد أبدا . وبذلك كان اسم جالوس مسجلا فى قائمة ضحايا حقده المنتظرين . وبالتجاء أجريبينا الى جالوس فانها فقدت أى احتمال للرحمة من تيبيريوس . وانتهزسيجانوس الفرصة فأوحى الى تيبيريوس بأن يدعوها الى العشاء معه . وكان سيجانوس يعرف طبيعة أجريبينا المتكبرة ويعرف أنها سوف تجلس الى المائدة بغير أن تتناول أى طعام (احتجاجا على تصرفات تيبيريوس نحوها) وحدث ماتوقعه سيجانوس تماما. اذ رفضت أجريبينا أن تتناول أى لقمة . وأمسك سيجانوس بالفرصة فهمس فى اذن تيبيريوس بأن تصرفها يعنى أنها تخشى أن يكون الطعام مسمما . وأراد تيبيريوس أن يختبر صحة ذلك الاتهام فانتقى بيده تفاحه وقدمها اليها . وبكل كبرياء (وغباء) ناولت أجريبينا التفاحة للعبد الواقف من خلفها . وثار غضب تيبيريوس فكتب رسالة الى السناتو وعدد فيها الاتهامات ضد أجريبينا وطلب ادانتها . ولكن السناتو (رغم خضوعه المطلق لتيبيريوس وسيجانوس) تردد فى أن يمس حفيدة أغسطس بسوء ، كما أن شعب روما راح يخرج فى مظاهرات عديدة ويعلن عن ولائه لأجريبينا وأبنائها الثلاثة . وقد تطلب الأمر رسالة ثانية (وعنيفة) من تيبيريوس الى السناتو حتى خضع السناتو وأدان أجريبينا . وللتو حكم تيبيريوس عليها بالنفي الى جزيرة پانداتاريا (نفس الجزيرة

التى كانت قد نفيت اليها وماتت فيها أمها جوليا) ثم حكم على ابنها نيرو بالنفى الى جزيرة بونتيا ، ثم آعاده الى روما • وفى روما انتحر نيرو • أما كاليجولا ودروسوس فقد كانا صبيين ولذا فان تيبيريوس اكتفى باستبقائهما تحت رقابته فى كابرى • وكان ذلك انتصارا ثانيا لسيجانوس •

وفى كابرى كان الامبراطـور يقضى وقته كيف يشـاء مستمتعا تارة بالجنس وتارة بتعـذيب الضـحايا وتـارة باعـدامهم • وكان ينفجر فى قهقهات رهيبة وهو يشـاهد عمليات الاعدام •

وكانت تلال كابرى حادة الميـول • وقد اسـتثمرها تيبيريوس فى نـوع مبتكر من القسـوة • اذ خصص بعض الجنود للاقامة على الشاطىء ثم راح يلقى بضحاياه من فوق الصخور • وكان واجب الجنود هو فحص الضحايا وجلد من يجدونه حيا منهم حتى الموت • وفى روما راجت آغنية شعبية تصف وحشيته فتقول «انه ليس عطشانا الى النبيذ ، وانما الذى يروى ظمأه هو قدح من الدماء» • وكان من الواضح أن تيبيريوس قد دخل فى الجنون • ولكنه مع ذلك كان يؤوب الى رشده من آن الى آخر ويعوده ذكاؤه وألمعيته • وكان ذلك يحدث غالبا عندما يجلس مع حاشيته من الفلاسفة والمنجمين • وان لم تخل مثل هذه الجلسات من بعض المآسى • فقد حدث أن أشار صديقه الفيلسوف زينـو الى أن لهجته الاغريقية تقرب من لهجة أهل رودس • وللتو (ولغير سبب مفهوم) وجد زينو نفسه مقبوضا عليه ومنفيا الى جزيرة قاحلة •

أما عن سيجانوس فان قبضته كانت تمسك بكل خيوط الحكم والسلطة • وحتى زوار تيبيريوس (من ملوك وحكام

وأمراء وأعضاء السناتو والنبلاء .. الخ) فانهم كانوا يضطرون الى الانتظار أياما وأسابيع على الشاطىء الايطالى المقابل لكابرى ، حتى يصلهم الاذن من سيجانوس بالعبور اليها .

وفى كل أنحاء الامبراطورية راحت تماثيل سيجانوس تقف الى جوار تماثيل تيبيريوس . وفى فلسطين ثار اليهود على تلك التماثيل ، لأن القانون الرومانى كان يقضى بعبادتها . ولكى يهدىء الحاكم «بونتيوس بيلات» من ثائرة اليهود فانه رأى أن يسترضيهم بالاستجابة الى طلب المجمع اليهودى «السنهدرين» بصلب رجل معين . ولعل بيلات رأى فى ذلك فكاهة طيبة ، لأن اليهود انما كانوا يطلبون صلب الرجل الذى ادعى أنه ملكهم (١) .

ولايوجد مايدعو الى الظن بأن تيبيريوس قد علم بصلب ذلك الرجل «يسوع المسيح» أو حتى عرف اسمه . ولكن خلفاء تيبيريوس عرفوا ذلك الاسم بعد ذلك جيدا .

---

(١) لقد ذهب الكاتب فى تصوير وتأويل قضية صلب المسيح بما يضفى عليها طابع القسوة والتفكه من جانب بيلات . بينما تقرر الأناجيل وسائر المراجع التاريخية أن بونتيوس بيلات عارض فى صلب المسيح وحاول أن يتخلص من ضغط اليهود فأحال القضية الى هيرود (ملك اليهود) ولكن الأخير تهرب من النظر فيها وأعاد المسيح الى بيلات وللمرة الثانية قاوم بيلات وعرض على اليهود أن يصلب لهم أحد اللصوص وأن يطلق سراح المسيح ولكنهم رفضوا وصاحوا « اصلبه . دمه علينا وعلى أولادنا » وعندئذ دعا بيلات باناء ماء وغسل يديه من دم المسيح ثم أمر بصلبه .　　　　المعرب .

الرسالة القاتلة ..

فى اليوم الأول من سـنة ٣١ ميـلادية سمح تيبريوس للسناتو بأن ينتخبه قنصلا للمرة الخامسة . ولم يكن لذلك الانتخاب أى معنى ديمقراطى وانما هو كان على سبيل مراعاة الشكليات فقط . وكان للامبراطـور الحـق فى آن يختار القنصل الثانى . واختار تيبريوس سيجانوس . وكان ذلك الاختيار تشريفا لسـيجانوس ، الذى كان يجمع بين يديه سلطات القنصل والامبراطور معا . وزيادة على ذلك فان تيبريوس حقق لسيجانوس أقصى آحلامه فسمح له بالزواج من ليفيلا . وللتو أقيمت احتفالات التكريم لسيجانوس فى سـائر أنحاء الامبراطورية وأقيمت له تمـاثيل من الذهب الخالص .

وحسب سيجانوس أنه أصبح قاب قوسين آو أدنى من العرش . ولكن تيبريوس آلقى فى طريقه بمفاجآة كبرى . فقد بعث برسالة الى السـناتو . وفى تلك الرسـالة أعلن تيبريوس عن اسم خليفته على عرش الامبراطورية وكان هو «كاليجولا» .

وجن سيجانوس غضبا وبدأ في الحال بتدبير قتل تيبيريوس والاستيلاء على العرش بالقوة • ومع أن قوات الحرس البريتورى كانت تحت قيادته ومع أنه نجح فى شراء كل ذى نفوذ وضمه الى مؤامرته فانه لم يستطع أن يتحرك قبل أن يضمن ولاء القوات الرومانية البعيدة • فقد كان من الممكن أن يتحرك منها خمسون ألفا الى روما وأن يقصوه عن العرش • ولذا فانه بعث رسله الى تلك القوات وراح ينتظر على نار •

ومع أن روما كانت قد بدأت تشعر بالمؤامرة فان سيجانوس كان مطمئنا الى رقابته المحكمة على كابرى وكان واثقا من استحالة وصول أى خبر أو اشاعة الى الامبراطور الا عن طريقه •

وذات يوم ظهر الكوكب المذنب فى السماء ••

وفى الصباح التالى كان سيجانوس يجلس فى مقعد الصدارة بمجلس السناتو ويتلقى تحيات الاكبار من كل جانب ، بينما كان يقف على المنصة أحد ضباط الحرس البريتورى ويقرأ رسالة موجهة من الامبراطور الى السناتو • وكان اسم ذلك الضابط هو ماكرو ، وكان من أخلص أتباع سيجانوس • ولذا فان الأخير لم ير بأسا فى الموقف وراح يستمع مع الشيوخ الى رسالة الامبراطور • وكانت الرسالة تقول «سادتى الشيوخ • اننى رجل عجوز وخائف • أغيثونى • امنحونى حمايتكم» • وابتسم سيجانوس فطالما كانت تلك هى المقدمة التى يبدأ بها تيبيريوس رسائله • ورحب سيجانوس فى أعماقه بتلك البداية الخانعة للرسالة • فقد كانت تؤكد أن الامبراطور أضعف وأذل من أن يصلح لمنصبه • وفجأة

تغيرت لهجة الرسالة ، اذ راحت تقول «ان سيجانوس خائن متآمر» • ثم استطردت الرســالة فى سرد الأدلة على ذلك ثم انتهت بطلب ادانته واعدامه •

وكم كان سيجانوس مخطئا فى اطمئنانه الى قوته ومتانة مركزه •• فقد كان الحاقدون عليه (وخاصة فى مجلس السناتو) أكثر مما يتصور •• فكل منصب أهداه الى واحد من أتباعه أو حلفائه كان منتزعا من رجل آخر • وكان هناك الكثيرون فى الســناتو •• ممن فقــدوا مناصب الحــكم عــلى يــدى سيجانوس •

وفى دقائق قليلة استجابت غالبية الشيوخ الى رســالة الامبراطور وأدانت ســيجانوس وحكمت عليه بالاعــدام • وخرج سيجانوس من المجلس وفى عنقه حبل الجلاد وتم اعدامه على الفور •

وتلت ذلك سلسلة من احكام الأعدام على كل من كان يمت اليه بصلة وحتى أبعد أهله عن المؤامرة أعدموا • وكان من بينهم طفله وطفلته ، اللذين أعدما لا لسبب ســوى أن سيجانوس كان والدهما • وكان القانون الرومانى • لايسمح باعدام العــذارى الرومانيات • ولكن تيبيريوس ابتكر حــلا يرضى القانون • فقد أمر الجــلاد باغتصاب الطفلة (التى كانت هى وأخيها دون العــاشرة) ثم أعــدمها بعد ذلك هى وأخيها خنقا •

وكان يوم كشف مؤامرة سيجانوس واعدامه يوم رعب لتيبيريوس • فقــد علم بالمؤامــرة من ســيدة كانت أبعــد ماتكون عن حبه • لأنها كانت هى أنتونيا والدة جرمانيكوس،

الذى كان تيبيريوس متهما بتسميمه ، وكانت زوجة ابنها (أجريبينا) وحفيدها (نيرو) منفيين بأمره • ومع ذلك فان حقدها على سيجانوس كان أكبر ، ولذا فانها نجحت فى تسريب رسالة تحذير الى الامبراطور • ووجد الامبراطور فى شخص ماكرو حليفا طموحا وقويا فبعث معه بالرسالة الى السناتو وكان ماكان • وفى اليوم المحدد لتقديم الرسالة الى السناتو جهز تيبيريوس نفسه للفرار ان فشل تدبيره • ثم بعث برسل وجعلهم يرابطون على طول المسافة بين روما وبين الشاطىء الايطالى المواجه لكابرى • وكانت علامة الانتصار على سيجانوس هى ايقاد النيران ووقف تيبيريوس على أعلى تل فى كابرى ، وراح ينتظر اشارة النيران • وجاءت الاشارة أخيرا • فعاد الى الفيلا رقم ١٠ واحتفل طول الليل بتلك المناسبة السعيدة •

العجوز المفترس

بلغ تيبيريوس السبعين من عمره ٠

وبعد مصرع سيجانوس قضى فى الفيلا رقم ١٠ أكثر من تسعة أشهر بغير أن يغادرها ٠ فقد كانت الشيخوخة قد بدأت تتغلب عليه ، فازدادت نحافة جسمه أما وجهه فكانت تكسوه البقع والغضون والتشوهات ٠ وكانت التماثيل التى تقام له فى ذلك الوقت كاذبة بالكلية فقد كانت تصوره وسيما ناعم الوجه نافذ النظرات بينما شفتاه وخدوده وذقنه مكسوة ـ فى الواقع ـ بالندبات التى أثمرها الكى المتتالى ٠ وكان الكى هو العلاج الوحيد لتلك القروح التى كانت تكسو وجهه ٠ ولعل سببها كان هو الزهرى أو مرض جلدى آخر ٠

ومن العسير أن نقرأ عن السنوات الأخيرة لذلك الامبراطور الرهيب بغير أن نشعر بنوع من الشفقة ٠ فقد كان بغير حب وبغير أصدقاء وبغير صحة كما أنه من المستحيل أن نقرأ عن أفعاله الدموية فى تلك الفترة بغير أن نشعر بالفزع والتقزز ٠ وكانت الفئة الوحيدة التى تعيش معه فى

أمن نسبى هى فئة المنجمين (وعلى رأسهم ثراثيليس) • أما الآخرين فان أحدا منهم لم يكن فى أمان من غدر تيبيريوس •

ويوميا كانت تدور عجلة الوشايات والتحقيقات والمحاكمة والتعذيب والقتل • وحين كانت تعوزه الضحايا فانه لم يكن يتردد فى اصطياد أفراد حاشيته وأصدقائه ليصبحوا وقودا لمزاجه الدموى الرهيب • ولقد بلغ من قسوته أنه كان يحرم على أقارب ضحاياه أن يبكوهم أو يحزنوا عليهم • وذات يوم جرؤت والدة «فوفيوس» على النواح أثناء اعدامه فأمر تيبيريوس باعدامها • وبتهمة ملفقة تماما تصيد تيبيريوس أسينيوس جالوس (زوج فيبسانيا) وصب عليه أنواع العذاب ، ثم عذب وأعدم صديقا له هو سيناكوس • أما جالوس فان تيبيريوس كان به رحيما •• اذ تفضل وأذن له بأن يقتل نفسه •

وفى نظام القضاء الرومانى كان يوجد «الديلاتور» (المبلغ) • وكما سبق أن أشرنا فان تجارة التبليغ (والأصح الوشاية) كانت تجارة رابحة • وفى تلك الأيام كان المبلغون ينتشرون فى كل مكان وكان تيبيريوس هو زبونهم المفضل • وسعيا وراء المزيد من المكافآت فان معظمهم كان يتخصص فى تلفيق التهم وتزوير الأدلة • وكان بعضهم يجيد ايقاع ضحاياه فى أخطاء أو تصريحات كانت تكفى (مهما كانت هينة) لدمغه بالخيانة • ولقد حدث ذات يوم أن لاحظ واحد منهم أن ضابطا فى الحرس البريتورى (كان اسمه كالبورينس) يلبس فى اصبعه خاتما كانت صورة تيبيريوس محفورة عليه، وتلك دلالة على فرط الولاء بغير شك • ولكن المبلغ بادر بتبليغ تيبيريوس بأنه شاهد كالبورينس وهو يمسك باليد

(التى تحمل الخاتم) بعضوه أثناء التبول ، وتلك اهانة للذات الامبراطورية · ولولا أن أحد عبيد كالبورينس كان قد لمح المبلغ أثناء تجسسه على سيده ، فبادر باستبدال ذلك الخاتم بخاتم يحمل صورة شخص آخر ، والا لثبتت التهمة على كالبورينس ولكان مصيره هو الاعدام ·

وكانت زنزانات كابرى ممتلئة على الدوام · ليس فقط بالعبيد والمجرمين وانما أيضا بالنبلاء والأمراء · وحتى الملوك لم يفلتوا من الوقوع فيها · فقد كان هيرود أجريبينا (ملك اليهود) ضيفا على تيبيريوس · ولكن الأخير أمر بسجنه فى نزوة عابرة ·

أما عمليات الاعدام فكانت تدور فى كل الأيام · وحتى أيام العطلات والأعياد ورأس السنة كانت لاتخلو منها · وكان تيبيريوس يدور بين أقبية السجون ويفتش على الزنزانات ويزور قاعات التعذيب ليستمتع بمرأى ضحاياه كما يستمتع الجزار برؤية ماشيته · وكانت صيحات الألم من خلع المفاصل والأظافر وتحطيم الأسنان وخلع العيون والكى بالحديد المحمى تشنف أذنيه · وكان يحول بين ضحاياه وبين الموت السريع · وعندما هتف به أحد الضحايا متوسلا أن يأمر بقتله ليريحه من العذاب رد عليه قائلا «كلا انك لست صديقى» · وعندما تمكن سجين آخر من الانتحار صاح تيبيريوس غاضبا «لقد أفلت من يدى» ·

ولم يكن تيبيريوس يكتفى بأنواع التعذيب المعروفة وانما كان يستدعى الخبراء فى ذلك الفن الرهيب ويكلفهم بابتكار أنواع جديدة منه · وحين كانت ابتكاراتهم لاترضيه فانه كان يبتكر هو أنواعا جديدة · ومنها أنه كان يستدعى

ضحيته ويلقاه بابتسامة عطوف ثم يأمر بتقديم النبيذ اليه ويشجعه على الاكثار منه • وحين كان الضحية يصل الى حد الامتلاء كان تيبيريوس يأمر بتجريده من ثيابه وربط عضوه الجنسي بحبل متين لكي يعجز عن التبول • وكان الضحية يموت بعد عذاب رهيب •• ان لم يكن من الألم فمن انفجار المثانة والحالبين •

وراح المحققون ينقبون فى حياة الناس وفى سـجلات القضايا سـعيا وراء المزيد من الوقود لقـاعات التعذيب وساحات الاعدام • وكانوا يجدون بغيتهم فى قضايا انتهت منذ وقت طويل • ومنها قضية كانت تدور حول سيدة اتهمت بمحاولة تسميم زوجها منذ عشرين سنة • ومع أن القضية كانت قد انتهت بتبرئتها ، ومع أن زوجها كان قد طلقها منذ ذلك التـاريخ ، فان محققى تيبيريوس أمـروا بالقبض على السيدة وبادخالها الى قاعات العذاب • ثم أعدمت فى نهاية الأمر لا لسبب سوى أن قائمة المحكوم عليهم بالاعدام كانت لم تمتلىء بعد ••

وفجأة وقـع المحققون على كنز ثمين ••• لقـد مات دروسوس (ابن الامبراطور) مقتولا بالسم •• وعندما علم الامبراطـور بتلك الحقيقـة ، انطلق فى عمليـات القبض والتحقيق والتعذيب والاعدام كالمجنون ، وكرس وقته لها • واذا كان سيجانوس قد أفلت من يد تيبيريوس ، فان كل من شارك فى تسميم دروسوس قد وقع فى مصـيدة تيبيريوس وذاق ألوان العذاب والموت على يديه • وحتى الأبرياء ، وقع منهم الكثيرون فى تلك المصـيدة • وكان زبانيـة تيبيريوس يتلقـون شحنات كاملة من المتهمين والشـهود فى قضـية

دروسوس ويعذبونهم على حد سواء . ولقد حدث أن واحدا من أثرياء جزيرة رودس كان (لسوء حظه) قد استضاف تيبيريوس فى مبدأ نزوله فيها حتى يتم بناء فيلته ، وفى كابرى خطر على بال تيبيريوس أن يرد له جميله فدعاه لزيارته . وحضر الرجل وهو يتوقع الفوز بالكثير من كرم الامبراطور وهباته ، فكان كل مافاز به هو الموت والعذاب . فقد كان قد عبر من الشاطىء الايطالى الى كابرى فى سفينة كانت مكتظة بالمتهمين فى قضية دروسوس . وما أن وضع قدمه فى كابرى حتى وجد نفسه محشورا بين زمرة المتهمين . ودارت عليه آلات التعذيب حتى أحالته الى أشلاء تتردد فيها بعض نسمات الحياة . وعلم الامبراطور بما حدث فأمر باحضار الرجل . وحين رآه على ذلك الحال لم يتردد فى انهاء عذابه ، فأمر بقذفه من فوق التلال ! . وعلى الشاطىء تناول الجنود الجسد المحطم وأخمدوا أنفاسه بسياطهم ..

أما عن شئون الحكم وادارة الامبراطورية فان تيبيريوس أعطى مقاليدها لماكرو . وتفرغ هو بالكلية لأقبية التعذيب ومخادع المتعة فى كابرى . ولكن ذلك لايعنى أنه ترك رسم خطوط الحكم الأساسية لغيره . فقد كان قد وضع أسساممتازة لادارة الامبراطورية . وفى عهده راحت الأموال تتدفق على الخزانة ، كما بدأ الحكام يشعرون بالاستقرار فى مناصبهم . كما أنه وفر على الخزانة معاشات الجنود ، اذ كان يرفض أن يحيلهم الى التقاعد ويتركهم يعملون حتى الموت .. فقد كان ذلك أوفر .

وعن مسألة وراثة العرش فانه كان قد استبعد منها حفيده «جيميلوس» (ابن ابنة دروسوس) لانه كان لم يتعد

السادسة عشر ، كما استبعد دروسوس (ابن جـرمانيكوس وأجريبينا) بنفيه وتجويعه حتى مات (عند موته وجد الحراس فمه مملوءا من القش الذى كان يملأ مرتبة سريره) ولم ينج المسكين ــ حتى بعد موته ــ من حنق تيبيريوس ، فقد أمر هذا بتمزيق جثته اربا . ولقد قتلت أجريبينا عندئذ نفسها . كما استبعد تيبيريوس من وراثة العرش «كلوديوس» . فقد كان هذا أعرجا (بسبب اصابته فى الطفولة بشلل الأطفال) وكان فمه معوجا ، وكانت تبدو عليه البلاهة والبلادة . وكانت أمه تسميه «المسخ» ومع أن كلوديوس كان يحفظ قدرا طيبا من الشعر الاغريقى فانه فيما عدا ذلك كان كما مهملا . وكان محتقـرا من الجميع حتى زوجتـه . ومـع ذلك فان كلوديوس تولى العرش من بعد كاليجولا ، وكان ــ بمقاييس العصر ــ من أمهر الأباطرة وأقدرهم على ادارة الامبراطورية ، حتى لقد قرر السناتو والشعب تأليهه بعد موته ــ الأمر الذى كانوا قد رفضوه بالاجماع بالنسبة لتيبيريوس ــ . ويبدو أن كلوديوس كان يتظاهر بالغباء والبلادة حتى ينجو بحياته ويفلت من براثن تيبيريوس .

وكان لابد لتيبيريوس أن يختار وريثه على العرش فلم يجد أمامه سوى كاليجولا . وكان الأخير فى الخامسة والعشرين من عمره كما أنه كان محبوبا من الجيش منذ طفولته . ولقد استطاع أن يحصل على رضاء تيبيريوس عنه ، بالالتزام بكل قراراته والترحيب بكل أفعاله (بما فيها قتل أبيه جرمانيكوس وأخيه دروسوس وانتحار أمه أجريبينا وأخيه نيرو) . ولقد عجز المبلغون عن الحصول منه على كلمة اعتراض أو نقـد واحدة على مضارع هؤلاء . حتى راح بعضهم يقول «اننى لم

أر في حياتي عبدا أحقر ولا سيدا أسوأ من كاليجولا» ·
وكانت تلك نبوءة صائبة الى أبعد حد ·

ولقد كان كاليجولا يميل بشدة لمشاهدة مناظر التعذيب والاعدام وكان يدأب على الاستمتاع بها · ولقد كان ذلك مصدر ارتياح لتيبيريوس فراح يقول «انني أربي ثعبانا ساما في أحضان روما» · ومن بعد أن اختاره وريثا للعرش زوجه بفتاة تدعى جوليا كلوديلا ·

ولم يكن مارآه تيبيريوس هو كل شيء في كاليجولا · فقد كان الأخير في أعماقه وحشا جهنميا ، وكان معدوم الرحمة بالكلية ، ولقد بلغ من الرذيلة حدا لم يتورع معه عن مضاجعة شقيقاته الثلاث · ثم انه لم يتردد في تأكيد فرصة حصوله على العرش ، عن طريق مغازلة زوجة ماكرو والارتباط معها بالزنا (مقتديا في ذلك بسيجانوس) ·

واذا كانت قسوة تيبيريوس قد انصبت على الأفراد فان كاليجولا (بعدما ارتقى العرش) صب سوط الموت والعذاب على الامبراطورية من أقصاها الى أقصاها ؛ وجعل الناس يترحمون على تيبيريوس ·

وجاءت ساعة تيبيريوس ·

فقد ظهر طائر العقاب «فوينكس» في مصر · وهو طائر لم يكن يظهر للناس الا بين مئات السنين · وتتالت علامات أخرى · فقد وجد الامبراطور ثعبانه المفضل ميتا ذات صباح · كما انطلق لسان من اللهب من بين رماد المدفأة في قاعة الطعام ثم وقع زلزال هز كابري وآخيرا فقد كان قد تلقى تمثالا رائعا لأبوللو ، وجاءه أبوللو في المنام وقال

له «انك لن تستطيع أن تحتفل باقامة تمثالى» • وآفزعت تلك العلامات تيبيريوس فلجأ الى ثراثيليس لكى يفسرها • ولكن الأخير كان أذكى من أن يفسرها على حقيقتها وبالأحرى آن يفسر مظاهر شيخوخة وانهيار صحة تيبيريوس على حقيقتها • ولذا فانه راح يمسك بكتب التنجيم ويشير الى السطور ويقول «انظر هـذا واقرأ ذاك ، ان التفـاسير كلها تشـير الى آنك ستعيش وتعمر طويلا» • ولم يتردد تيبيريوس فى التصديق لأنه كان يرغب فى أن يصدق •ولقد كان فيما فعله ثراثيليس خير كثير ، سواء لنفسه أو للناس فمن الذى كان يستطيع آن يتنبـأ بالكوارث التى كان سـيوقعها تيبيريوس بثراثيليس وبالشعب لو أنه علم بأن موته قـريب !• واذا كان هيرود (ملك اليهود) قد أكرم نفسه باحتفال رهيب بعد موته ••• اذ أمر بأن تتم عمليات ذبح جماعية بمجرد موته • وبذلك استطاع أن يضمن أن يتم تشييع جنازته وسط اللطم والعويل فى كل بيوت آورشليم •• اذا كان هيرود وهو الحاكم التابع قد فعل ذلك فمن الذى كان يضمن آلا يطبق تيبيريوس ذلك المثال الرهيب على مستوى الامبراطورية • وتلقى تيبيريوس دعوة لحضور حفلة للمصارعين فى احدى المدن • فعبر اليها وهو مطمئن وآراد ـ آثناء الحفلة ـ آن يظهر ان صحته بخير فتناول بعض الحراب وقذف بها خنزيرا بريا •

ولكن قذف الحراب كان آكبر من طاقته فانخلع كتفه •

ونقل تيبيريوس الى بيت قـريب وهنـاك راح يلفظ آنفاسه • وانتشر النبأ على الفور فطار كاليجولا الى هناك ، وانتزع الخاتم من اصبيع تيبيريوس ثم خرج ليتلقى التهانى والهتافات • وكان ماكرو هو آول المهنئين •

وفجأة انقلب الحال ٠

فقد أفاق تيبيريوس وفتح عينيه وطلب شيئا يأكله ٠

وعلى أى حال فان تيبيريوس لم يكن بالرجل الذى يموت بسهولة ، لأن الموت ــ موته هو فقط ــ كان لايتفق مع مزاجه مطلقا ٠

ماكرو يسدل الستار

وما أن علم كاليجولا بنبأ افاقة تيبريوس حتى طار هاربا وراح يبحث عن مكان يختبىء فيه من غضبه • فقد كان من المؤكد أنه سوف يحاسبه حسابا عسيرا على تعجله بامتلاك الخاتم واعلان نفسه امبراطورا •

أما الجماهير فتناثرت فى جماعات ، ثم راحت تنعى حظها السيىء ، (ولم تكن تعلم بأن الحظ السيىء كان قادما اليها على يد كاليجولا) ، وكان الوحيد الذى احتفظ بصفاء عقله هو ماكرو • فقد كان هو أول من هنأ كاليجولا وأعلنه امبراطورا • فاذا أراد تيبريوس أن يفسد على ماكرو فرصته فانه كان عليه أن يدفع الثمن •

واندفع ماكرو الى حجرة تيبريوس وهناك رآه جالسا على الفراش وهو يزمجر غاضبا ويتساءل «من الذى سرق خاتمى ؟؟ وأين الأطباء والحاشية وأين الطعام الذى طلبته ؟» • وكان جواب ماكرو هو أنه اندفع نحو الفراش وجمع عددا من البطاطين ثم ألقى بها فوق رأس تيبريوس وراح يضغط

عليه بكل قوته • وقاوم الامبراطور • ولكن كان هيهات لعجوز محطم أن يتغلب على رجل فى عنفوانه كماكرو • وشيئا فشيئا راحت قوى تيبيريوس تهمد ، وأخيرا خمدت أنفاسه • ولم يتركه ماكرو الا بعد أن تأكد من أنه لن يعود مرة أخرى الى الحياة •

وهكذا فى ١٥ مارس سنة ٣٧ بعد الميلاد مات تيبيريوس قتيلا بيد أخلص أتباعه • وكان ماكرو ، الذى أنقذ من قبل حياة تيبيريوس ، هو نفسه الذى أسدل الستار على تلك الحياة •

وبعد • فقد استطاع تيبيريوس الامبراطور أن يحول الدولة الرومانية من الحكم الجمهورى الى الحكم الملكى المطلق • وحين يتصدى التاريخ للحكم عليه فانه سوف يحتار • فقد كان — بمقياس المصلحة — امبراطورا جيدا ، لأنه ثبت قواعد الحكم وحقق السلم والاستقرار لسائر شعوب الامبراطورية • وكانت حدود الامبراطورية آمنة ومستقرة مابين نهر الراين فى أوربا ونهر الفرات فى آسيا • وكانت الامبراطورية تضم كل العالم المتحضر ، الذى كان يدور كله حول البحر الأبيض المتوسط •

وفيما عدا بضعة آلاف من ضحايا تيبيريوس الشخصيين فان سائر الرعايا كانوا يعيشون فى أمان ، لأنه لم يفرض عليهم أى ضرائب جديدة ، وكانت الضرائب فى عهده معتدلة — بمقياس العصر — ، كما أنه لم يمارس المذابح الجماعية • ومع ان كابرى كانت جحيما فى أيامه • فان روما كانت مزدهرة وهادئة • وصحيح أن المؤرخين ينسبون ثراء الخزانة فى عهده الى أنه كان بخيلا وكان لايرغب فى الانفاق على

الحروب أو حفلات الملاعب ، وانما هو كان يقصر نفقاته على ملذاته فقط • ولكن صحيح أيضا أن الامبراطورية خرجت من عهده بخزانة مليئة واقتصاد مستقر •

وعندما سمع أهل روما بنبأ موته خرجوا فى مظاهرات تهتف «ألقــوا بتيبريوس اللعــين الى نهر اليتبر» • ولــكن كاليجولا لم يعجبه ذلك ، فقد كان يضمر لهم عذابا أليما ، لا لشىء سوى أن ذلك كان هو متعته الكبرى ، ولم يكن يرغب فى أن يتعلم أهل روما اهانة الأباطرة وخاصة القساة منهم • ولذا فانه شيع جثة تيبريوس باحتفال كبير ودفنه بالاحترام اللائق بمقامه •

وبينما كانت الاحتفــالات الرســمية بتأبين تيبريوس تدور ، جاءت أنباء رهيبة من كابرى • فقد كان هناك عدد من الضحايا الذين ينتظرون الاعدام • وعندما أعلن موت تيبريوس ظن الجميع أن نجاةهؤلاء الضحايا قد باتت مؤكدة • ولكن الموظفون الموكلون بتنفيذ الاعدام كان لهم رأى آخر •

وكأى موظفين بيروقراطيين ، أفتى هؤلاء بأن الذى يملك حق العفو عن الضحايا كان هو تيبريوس ، وقد مات • أما كاليجولا فان مراسم ارتقائه للعرش لم تكن قــد تمت ولذا فانه كان لايملك حق العفو • وفى المواعيد المحددة تم اعدام الضحايا واحدا بعد الآخر •

وصاح الشعب «لقد مات السفاح ولكن قسوته لم تمت معه» • ولكن بعد قليل ، اســتطاع كاليجــولا أن يعلم ذلك الشعب المعنى الصحيح والمتكامل للقسوة •

تعريف .. مختصر

على عادة الكثير من الشعوب ، جرى الرومان على الاسراف فى تسمية الابناء بأسماء معينة .

وعلاجا لهذه الظاهرة المربكة فاننا نقـدم فى السطور التالية تعريفا مختصرا بشخصيات الكتاب .

المعرب

جايوس يوليوس قيصر : القائدوالدكتاتور والامبراطور لم ينجب سوىقيصرون (من كليوباترا) . وقد قتل قيصرون، بعد انتحار كليوباترا ، بأمر آغسطس .

جايوس أكتافيان : هو الامبراطـور أغسطس . ابن أخت قيصر (من جايوس آكتافيان الأب) وابن قيصر بالتبنى .

لم ينجب سوى جوليا ، من زوجته الأولى «سكريبونيا» . طلق سكريبونيا وتزوج ليفيـا (أم تيبيريوس) ، ولم ينجب منها .

ليفيا : ليفيا دوروسيلا «أوغسطا» • تزوجت تيبيريوس كلوديوس نيرو (الاكبر) • وأنجبت منه تيبيريوس الابن (الامبراطور) ودروسوس • ثم طلقت منه وتزوجت أغسطس •

جوليا : ابنة أغسطس الوحيدة • تزوجت من مارسيللس «ابن اكتافيا ـ شقيقة أغسطس الأولى ـ • وقد تزوجت أكتافيا بعد موت والد مارسيللس من مارك أنتونى ، ثم طلقها أنتونى ليتزوج كليوباترا» الذى مات بالتيفود • ثم تزوجت من بطل معركة أكتيوم «ماركوس أجريبا» ، وأنجبت منه ابنتين (أجريبينا وجوليا الصغيرة) وثلاثة أبناء (جايوس ولوشيوس وبوستموس) • وقد ماتت جوليا الصغيرة فى المنفى ، وكانت قد أنجبت طفلا غير شرعى (قتل جوعا بأمر أغسطس) • ومات لوشيوس فى أسبانيا • وقتل جايوس فى حرب صغيرة على الحدود • وقتل بوستموس ، بأمر تيبيريوس •

أجريبينا : ابنة جوليا (من ماركوس أجريبا) وحفيدة أغسطس • تزوجت جرمانيكوس (ابن أنتونيا ـ شقيقة أغسطس الثانية ـ • مات مسموما) . وأنجبت منه

١ ـ جايوس (كاليجولا) ، الذى خلف تيبيريوس على العرش (وكان وحشا فى صورة انسان) •

٢ ـ دروسوس (الذى مات جوعا فى سجن تيبيريوس) •

٣ ـ نيرو (الذى انتحر فرارا من اضطهاد تيبيريوس) •

٤ ـ أجريبينا ، التى أنجبت نيرو (الذى اشتهر باسم الامبراطور نيرون) من زوجها دوميتيوس أهينوباربس ، ثم تزوجت ـ من بعد موت دوميتيوس ـ من كريسوس بارناس .

ثم قتلت كريســوس بارناس وتزوجت من عمهــا كلوديوس (الذى أصبح امبراطـورا بعــد مقتل كاليجـولا) ثم قتلت كلوديوس بالسم • وقد حاول نيرون ــ الذى اعتلى العــرش بعد كلوديوس ــ اغراق أمه أجريبينا بواسطة سفينة كانت مصممة لكى تتفكك بها فى عــرض البحــر ، ولكنها سبحت عندئذ ونجت فأرسل اليها نيرون ضابطا قتلها بحد السيف • وقد انتحر نيرون ، بعد ماثار عليه الحرس والشعب •

أما عن أجريبينا «الأم» فقد قتلت نفسها عندما علمت بانتحار ابنها نيرو •

دروسوس : ابن تيبريوس الوحيــد (من فيبسانيا) • أنجب ولدا (هــو جيملوس) • قتلته زوجتــه ليفيلا (أخت جرمانيكوس وكلوديوس) بالسم بالاشــتراك مع عشــيقها سيجانوس •

كتب للمعرب

مؤلفـــات

- ذكريات محارب قديم .
- الارهاب الصهيونى .
- قضية عمان .
- أضواء على الحرب النفسية .
- ليالى الخير .
- دعـــاء .
- دعاء الأولياء .
- أضواء على الهرم الأكبر .
- الغواصة . تاريخ .. ومغامرات .. ومستقبل .
- الدكتور ابليس (مسرحية) .
- أضواء على الطب الشرعى .

كتب معربة

- صراع فى البحر .
- الفدائى العجيب .
- الملاعب الرومانية .

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٥٥/١٩٨٥

ISBN _ ٩٧٧ _ ٠١ _ ٧٢٥ _ ٥

إذا كان التاريخ الإغريقى من صنع الفلاسفة ، ومن قبله كان التاريخ الفرعونى من صنع الكهنة ، فإن التاريخ الرومانى كان من صنع القادة الغزاة والأباطرة الطغاة . . ومن بين هؤلاء يقف تيبريوس موقفا فذا . فقائدا ناجحا كان هو . . وإمبراطورا طاغيا كان هو . . وإنسانا متجردا من مشاعر الرحمة كان هو . . ومع ذلك فإنه كان رجل سلام . . وكان هو الذى صنع « السلام الرومانى » الذى أعطى للعالم القديم استقرارا أتاح الفرصة للإنتاج وللتقدم الحضارى . . . وها هى قصته . . . قصة تيبريوس .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٥ قرشا